

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَمِّمَةٌ

أكبرت ابن قتيبة منذ أن قرأت له في فجر الشباب ، وصبت نفسي إلى كتبه ، فطلبتها ، وحرصت على دراستها بزمرة قوية ، وهمة فكية ، ونفس مشوقة ، وحس جميع . وكنت كلما أمعنت في قراءتها ، وأدمنت النظر فيها تجملت لي عظمتها ، وظهرت قيمتها ، وتبينت دقائقها ، وتهديت إلى مراميها ؛ واستبان لي من نضرة طلاوتها ، ورفافة مائيتها ؛ ورصانة أسلوبها ، وجمال عرضها ، وحسن تنسيقها وتبويبها - ما يزيدني إعجاباً بها ، وإعظاماً لمؤلفها .

ثم تعاقبت الأعوام ، وتنوعت القراءات ، وتغيرت القيم ، وتبدلت الأنظار ؛ وظل إعجابي بابن قتيبة وكتبه مكيناً ركيناً ، بل ازداد تأصلاً وتمكيناً ؛ بما ازددت من معرفة به ، وبصر بكتبه .

وابن قتيبة خليق بالإعجاب ، جدير بالإعظام ؛ فقد أخلص نفسه وفكره وعقله لدينه ولغته ، وقضى حياته مجاهداً في سبيل إعزازها ، والتمكين لها في نفوس شباب الإسلام ، ودرء شبه أعداء الدين والعربية والعرب ، بما ألف من كتب ، ودرس من دروس . لا يبتغى بذلك طلب المثالة بين الناس ، أو المثالة منهم ، أو الجاه عندهم . بل ابتغى بما عمل وجه الله ، وتحقيق المثل العظيم

الذى رسمه لنفسه منذ أن عقل أمرها ؛ وهو الجهاد الدائب فى سبيل الدين
واللغة ، حتى قضى نحبه رضى النفس ، مذكوراً بلسان الصدق فى الآخرين .

وقد أثابه الله على إخلاصه ، بما أفاض على كتبه من القبول ، وعطف
نحوها من القلوب والعقول . فلست ترى أديباً أو متأديباً قرأ من كتبه ، إلا
وهو يحس بنحوها بالمودة ، ونحوه بالتقدير .

وقد دفعنى إعجابى بابن قتيبة ، وعرفانى بقدر كتبه : أن أنشر ما بقى
منها ، نشرأ قوياً ، يسهل سبل الانتفاع بها ، ويظهر التراء على ما فيها من
روائع العلوم ، وبدائع الآداب والفنون .

والحق أن كتب ابن قتيبة دائرة معارف شاملة ، تمثل أرقى ما وصل
إليه الفكر الإسلامى ، فى القرن الثالث الهجرى . ومن ثم فهى خليفة
بالدرس ، جديرة بالنشر .

* * *

وابن قتيبة : من أسرة فارسية ، كانت تقطن مدينة « مرو » ولنا
نعرف عن نسبه أكثر من أنه : « عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم
للروزى » .

وقد ولد فى سنة ٢١٣ ، فى أواخر خلافة المأمون .

وقد اختلف المؤرخون له فى تعيين المدينة التى ولد بها ، فقال السمعانى ،
والتقطى : إنه ولد ببغداد . وقال ابن النديم ، وابن الأنبارى ، وابن الأثير :
إنه ولد بالكوفة .

وقد انفقوا على أنه نشأ ببغداد التي كانت تموج حينئذ بأعلام العلماء في كل فن ، وتهوى إليها أفئدة المثقفين والمتعلمين من كل أنحاء الدولة الإسلامية .

وقد كان ابن قتيبة - منذ شبابه الباكر - ذا نفس طُلعة ، تواقة إلى المعرفة ، دفعته إلى أن يتعلق من كل علم بسبب ، وأن يضرب فيه بسهم . وقد اقتضاه ذلك أن يفشى مجالس علماء الحديث والتفسير والفقه والنحو واللغة والكلام والأدب والتاريخ ؛ ففشى من مجالسهم ما غشى ، وثقف عنهم ما ثقف ؛ مما مكن له من أسباب القوة ، وهياً من وسائل التفوق والتبريز .

* * *

وقد تتلمذ ابن قتيبة لطائفة من أعلام عصره ، وروى عن جمع من مشاهير دهره ، وأخذ عن كثير من أعيانه وأماثله . نذكر منهم ما يلي :

١ - والده « مسلم بن قتيبة » . وقد أشار إلى ذلك في عيون الأخبار ٣/٣٠٧ ، ١/١٤٢ حيث يقول : « حدثني أبي ، عن أبي العتاهية » و « حدثني أبي ، أحسبه عن الهيثم بن عدي » .

٢ - أحمد بن سعيد اللحياني ، صاحب أبي عبيد : القاسم بن سلام ، وقد حدثه اللحياني بكتاب الأموال ، وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد ، في سنة ٢٣١ . وكان عمر ابن قتيبة - إذ ذاك - ثمانية عشر عاماً .

٣ - أبو عبد الله : محمد بن سلام الجعفي البصري ، صاحب طبقات الشعراء (١٣٩ - ١٣١) .

٤ — أبو يعقوب: إسحاق بن إبراهيم ، المعروف بابن راهويه (١٦١ - ٢٣٨) . وهو إمام جليل فى الفقه والحديث . صاحب الشافعى وناظره ، وروى عنه البخارى ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد بن حنبل الذى قال عنه : « لا أعرف لإسحاق بالعراق نظيراً » .

٥ — حرملة بن يحيى التجيبى ، صاحب الشافعى (١٦٦ - ٢٤٣) .

٦ — القاضى يحيى بن أكرم ، المتوفى سنة ٢٤٢ . وقد أخذ ابن قتيبة عنه بمكة .

٧ — أبو عبد الله: الحسين بن الحسين بن حرب السلمى المروزى ، المتوفى سنة ٢٤٦ .

٨ — دعبل بن على الخزاعى الشاعر (١٤٨ - ٢٤٦) .

٩ — أبو عبد الله: محمد بن محمد بن مرزوق بن بكير بن البهلول الباهلى البصرى المتوفى سنة ٢٤٨ .

١٠ — أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزياى ، تلميذ سيبيويه ، والأصمى ، وأبى عبيدة ؛ المتوفى سنة ٢٤٩ .

١١ — أبو حاتم: سهل بن محمد السجستانى ، المتوفى سنة ٢٤٨ أو ٢٥٠ ، أو ٥٥ .

قال الأزهرى فى مقدمة التهذيب ص ١١ : « وكان أبو حاتم السجستانى أحد المتقدمين ، جالس الأصمى ، وأبا زيد ، وأبا عبيدة . وله

مؤلفات حسان ، وكتاب في قراءة القرآن جامع ... وقد جالسه شمر ،
وعبد الله بن مسلم بن قتيبة ؛ ووثقاه .

١٢ — محمد بن زياد بن عبيد الله بن زياد بن الربيع الزياتى البصرى ،
الملقب ببؤيؤ ، المتوفى سنة ٢٥٢ .

١٣ — أبو يعقوب : إسحاق بن إبراهيم بن محمد الصواف الباهلى
البصرى ، المتوفى سنة ٢٥٣ .

١٤ — أبو عبد الله : محمد بن يحيى بن أبى حزم القطيعى البصرى ، المتوفى
سنة ٢٥٣ .

١٥ — أبو الخطاب : زياد بن يحيى بن زياد الحسانى البصرى ، المتوفى
سنة ٢٥٤ .

١٦ — شبابة بن سوار ، المتوفى سنة ٢٥٤ .

١٧ — أبو عثمان الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٤ . وقد أجاز ابن قتيبة
ببعض كتبه ، كما صرح به ابن قتيبة فى عيون الأخبار ، حيث يقول ١٩٩/٣
و ٢١٦ و ٢٤٩ : « وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر : من كتبه ؛ قال ... » .

١٨ — أبو يعقوب : إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد البصرى ،
المتوفى سنة ٢٥٧ .

١٩ — أبو طالب زيد بن أخزم الطائى البصرى ، الذى قتله الزنج
فى سنة ٢٥٧ .

٢٠ — أبو الفضل: العباس بن الفرّج الرياشي ، تلميذ الأصمعي ؛ الذي قتله
الزنج بالبصرة وهو قائم يصلي في مسجده ، سنة ٢٥٧ .

٢١ — أبوسهل الصفار: عبدة بن عبد الله الخزاعي الكوفي، نزيل البصرة ،
المتوفى سنة ٢٥٨ .

٢٢ — عبد الرحمن بن بشر بن الحكم بن حبيب بن مهران العبدي ،
المتوفى سنة ٢٦٠ .

٢٣ — أبوبكر: محمد بن خالد بن خدّاش بن عجلان المهاي البصري الضريـر .

٢٤ — أبو سعيد: أحمد بن خالد الضريـر قال أبو منصور الأزهرى عنه
في مقدمة التهذيب ص ١١ : « وكان طاهر بن عبد الله استقدمه من بغداد ،
فأقام بنيسابور ، وأملى بها كتباً في معاني الشعر والنوادر . وردّ على أبي عبيد
حروفا كثيرة من كتاب غريب الحديث . وكان لقي ابن الأعرابي ،
وأبا عمرو الشيباني ، وحفظ عن الأعراب نكتاً كثيرة . وقدم عليه القتيبي :
فأخذ عنه » .

٢٥ — عبد الرحمن بن عبد الله بن قريب ابن أخى الأصمعي ، الذي
عده الزبيدي في الطبقة الخامسة من اللغويين البصريين .



أخذ ابن قتيبة عن هؤلاء الأعلام ، كما أخذ عن غيرهم ممن أعرب عن
أسمائهم ، ومن أبهمها واكتفى بأن يقول : « حدثنا بعض مشايخنا » أو نحو

ذلك . كما أخذ عن الكتب المسموعة وغير المسموعة من كتب العرب والعجم .
وهذه يتابع ثقافته الفزيرة ، ومناهل معارفه الجمة .

وليس يكفي أن يكون الإنسان جم المعرفة ، غزير الثقافة ، ليكون مؤلفاً ممتازاً بل لابد له - مع ذلك - من طبيعة مواتية ، وفكر مرتب ، وعقل مركز ، وذوق مصفى ، وذهن ناقد ، وبيان ساحر ، وحافز نفسى غلاب . وكل ذلك قد توافر لابن قتيبة ، وهياً له ؛ فكأنه من أن يؤلف كتباً عظيمة : امتازت بالأصالة والجودة ، والطرافة والدقة ، وحسن الترتيب والتنظيم . وكانت لوناً جديداً خلا من شوائب الاستطراد والتخليط ومساوى التأليف والتصنيف .

* * *

صنف ابن قتيبة مصنفات كثيرة ، بلغت عدتها - فيما يقول أبو العلاء المعري - : خمسة وستين مصنفًا ، نذكر من أنبأها ، ما علمناه ، فيما يلي :

(١) كتاب الوزراء :

لم يذكره أحد ممن ترجم له ، وقد ذكره ابن منظور في لسان العرب ١٤٣/١٣ ، إذ يقول : « والعرب تسمى من يعمل جفون السيف خللاً . وفي كتاب الوزراء لابن قتيبة في ترجمة أبي سلمة : حفص بن سليمان الخلال في الاختلاف في نسبه ، فروى عن ابن الأعرابي أنه منسوب إلى خلل السيوف من ذلك » .

(٢) كتاب آلة الكتاب :

لم يذكر كذلك في ترجمته ، وقد ذكره ابن السَّيد البطليوسي في الاقتضاب حيث يقول ص ٨٧ : « ويقال للشحمة التي تحت برية النلم : الضرة ، شبهت بضرة الإبهام ، وهي اللحم في أصلها . كذا قال ابن قتيبة في « آلة الكتاب » وهو المعروف ، وخالف ذلك في « أدب الكتاب » فقال : الألية : اللحم التي في أصل الإبهام ، والضرة : اللحم التي تقابلها » وفي ص ٨٨ : « وقال أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة في كتاب : آلة الكتاب ... » وفي ص ٥٩ : « وقد ذكر ابن قتيبة هذا الكلام في آلة الكتاب وغير ذلك من كتبه » وكذلك ذكره في ص ٨٤ .

(٣) كتاب صناعة الكتابة :

وهو غير معروف كسابقه ، ولكن نقل منه الخزاعي في كتابه « تخريج الدلالات السمعية » ص ٣٥٨ عند كلامه على كلمة ديوان وأن جميعا دواوين ودياوين : « وقال ابن قتيبة في صناعة الكتابة : وإنما جمعوه بالياء على لفظه . قال : وداله بالكسر ولا تفتح » .

ومما يوثق صحة هذا النقل من صناعة الكتابة ، وأنه كتاب غير أدب الكتاب - أن الخزاعي ذكر في الباب الرابع من كتابه ، وهو الذي عقده لذكر أسماء التواليف التي خرج منها كتابه - في كتب اللغة « أدب الكاتب لأبي محمد: عبدالله بن مسلم بن قتيبة » ، وفي كتب الأدب : « عيون الأخبار لابن قتيبة والمعارف له . . . وصناعة الكتابة لأبي جعفر أحمد ابن محمد بن النحاس ، وصناعة الكتابة لابن قتيبة » .

(٤) كتاب الوحش :

ذكره ابن قتيبة في « الأنواء » ص ٤١ حيث يقول : « قال ابن مضرّس الأسدي :

ويوم من الشعر كأن ظيأه كواكب مقصور عليها صفورها
يريد أنها قد كنت . وقد ذكرت هذا في كتاب « الوحش » بأكثر
من هذا الشرح .

(٥) كتاب الصيام :

ذكره أيضاً في الأنواء ص ١١٨ حيث يقول : « ويتعرف من المنازل
بأن الهلال إذا طلع في أول ليلة من شعبان في « الشرطين » فإن كان شعبان
تاماً طلع في أول ليلة من شهر رمضان في « الثريا » وإن كان شعبان ناقصاً
طلع في « البطين » وهذا أمر بضيق ويصعب على الناس ، ويكثر فيه التنازع
والاختلاف ؛ فسخه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله : إذا غم عليكم فأكلوا
العدة ثلاثين . وقد ذكرت مثل هذا في الكتاب الذي ألفته في الصيام .

(٦) كتاب غريب الحديث :

وكان إلى منتصف القرن الرابع ، بعد ثانی اثنين ذهباً بإعجاب العلماء
وتقديرهم في هذا الفن .

قال أبو سليمان الخطابي في مقدمة كتاب غريب الحديث : « فكان أول
من سبق إليه ، ودل عليه أبو عبيد : القاسم بن سلام ؛ فإنه قد انتظم عامة
ما يحتاج إلى تفسيره من مشاهير غريب الحديث ، فصار كتابه إماماً لأهل

الحديث ، به يتذاكرون ، وإليه يتحاكمون . ثم انتهج نهجه أبو محمد: عبد الله ابن مسلم بن قتيبة ، فتتبع ما أغفله أبو عبيد من ذلك ، وألف فيه كتابا لم يأل أن يبلغ به شأو المبرز السابق .

ولم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة في كتاب أبي عبيد إلا مادعت إليه حاجة من زيادة شرح وبيان ، أو استدراك أو اعتراض . فجاء مثل كتاب أبي عبيد أو أكبر منه .

وقد قال ابن قتيبة في مقدمته : « وكنت زمانا أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به . ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما ترك نحواً مما ذكر ؛ فتقدمت ما أغفل ، وفسرته على نحو ما فسر . وأرجو ألا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال . »

ثم قال الخطابي بعد أن ذكر جماعة من مصنفى الغريب وأثنى عليهم : « ثم إنه ليس لواحد من هذه الكتب التي ذكرناها ، أن يكون شيء منها على منهاج أبي عبيد في بيان اللفظ ، وصحة المعنى ، وجودة الاستنباط ، وكثرة الفقه . ولا أن يكون من جنس كتاب ابن قتيبة في إشباع التفسير ، وإيراد الحجة ، وذكر النظائر ، وتخليص المعاني . »

ولم يبق من غريب الحديث إلا الثلث الأول والثلث الأخير ، في الخزانة الظاهرية بدمشق برقي ٣٤ ، ٣٥ - لغة .

وقد ذكره ابن قتيبة في كتاب أدب الكاتب ص ٧٠ وكتاب عيون

الأخبار ٢/٢٤٤ ، ٩/٤ وكتاب الأشربة ص ١٠٩ وكتاب تأويل مختلف الحديث ص ١٤ ، ٢١١ ، ٢٦٨ وكتاب المسائل ص ١٥ وكتاب الشعر والشعراء ٢/٦٨٤ وتأويل مشكل القرآن ص ٢٨ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ٢٠٥ .

وقد ألف الحسن بن عبد الله الأصبهاني ، المعروف بلغة ، كتاباً في نقده أسماء « الرد على ابن قتيبة في غريب الحديث » .

(٧) إصلاح الفاظ في غريب الحديث لأبي عبيد .

استدرك ابن قتيبة فيه على أبي عبيد في نيف وخمسين موضعاً ، وهذا الكتاب - فيما أرى - من أهم كتب ابن قتيبة وأعظمها أثراً في تاريخه ، فقد تعاظم كثير من العلماء - في عصره وبعد عصره - أن يعرض مثله بالنقد لأبي عبيد .

وترجع قيمته كذلك ، إلى أنه من بواكير كتب النقد العلمي .

وقد قدم له بمقدمة رائعة ، مليئة بالمعاني والأفكار ، وبدأها بدءاً ظريفاً إذ يقول : « لعل ناظراً في كتابنا هذا ينفّر من عنوانه ، ويستوحش من ترجمته ، ويربأ بأبي عبيد ، رحمه الله ، عن الهفوة ، وبأبي له الزلة ، ويتحشم قصب العلماء ، وعتك أستاذهم . ولا يعلم ما تقلدناه من إكمال ما ابتدأ : من تفسير غريب الحديث ، وتشديد ما أسس ، وأن ذاك هو الذي ألزمنا إصلاح الفساد ، وسد الخلل . على أننا لم نقل في ذلك الفاظ : إنه احتمال على ضلالة ، أو زيف عن سنة . وإنما هو في رأى قضى به على معنى مستتر ، أو حرف غريب مشكل .

وقد يعمثر في الرأي جِلَّةُ أهل النظر والعلماء المبرزون ، والخائفون لله الخاشعون ؛ فهؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم - وهم قادة الأنام ، ومعدن العلم ، وينابيع الحكمة ، وأولى البشر بكل فضيلة ، وأقربهم من التوفيق والعصمة - ليس منهم أحد قال برأيه في الفقه إلا وفي قوله ما يأخذ به قوم ، وفيه ما يرغب عنه آخرون ... وكذلك التابعون ... والناس يختلفون في الفقه ، ويرد بعضهم على بعض في الحلال أنه حرام ، وفي الحرام أنه حلال وهذا طريق النجاة أو الهلكة ؛ لا كالغريب واليهو والمعاني التي ليس على الهافي فيها كبير جناح ؛ كالشافعي يرد على الثوري ، وأصحاب الرأي ، وعلى معلمه مالك بن أنس .

وأبو عبيد يختار من أقاويل السلف في الفقه ، ومن قراءتهم ، ويرذل منها ، ويدل على عورات بعضها بالحجج البينة .
وعلماء اللغة أيضاً يختلفون ، وينبه بعضهم على زلل بعض . والفرءاء يرد على إمامه الكسائي ، وهشام يرد على الفرءاء ، والأصمعي يخطئ المفضل ... وهذا أكثر من أن يحاط به ، أو يوقف من ورائه .

ولا نعلم أن الله عز وجل أعطى أحداً من البشر موثقاً من الغلط ، وأماناً من الخطأ ، فنستنكف له منها ، بل وصل عباده بالعجز ، وقرنهم بالحاجة ، ووصفهم بالضعف والعجلة ، فقال : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ و﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ﴾ .

ولا نعلمه خص بالعلم قوماً دون قوم ، ولا وقفه على زمن دون زمن ، بل جملة مشتركة مقسوماً بين عباده ، يفتح للآخر منه ما أغلقه عن الأول ، وينبه القل منه على ما أغفل عنه الكثير . ويحميه بمتأخر يتعقب قول متقدم ، وتال يعتبر على ماض .

وأوجب على كل من علم شيئاً من الحق أن يظهره وينشره ، وجعل ذلك زكاة العلم ، كما جعل الصدقة زكاة المال . وقد قيل : اتقوا زلة العالم ؛ وزلة العالم لا تعرف حتى تكشف ، وإن لم تعرف هلك بها المقلدون ؛ لأنهم يتلقونها من العالم بالقبول ، ولا يرجعون إلا بالإظهار لها ، وإقامة الدلائل عليها ، وإحضار البراهين .

وقد يظن من لا يعلم من الناس ، ولا يضع الأمور مواضعها أن هذا اغتيال للعلماء ، وطعن على السلف ، وذكر للموتى ؛ وكان يقال : اعف عن ذى قبر . وليس ذاك كما ظنوا ؛ لأن الغيبة سب الناس بلثيم الأخلاق ، وذكرهم بالفواحش والشائعات . وهذا هو الأمر العظيم المشبه بأكل اللحوم الميتة . فأما هفوة في حرف ، أو زلة في معنى ، أو إغفال ، أو وهم أو نسيان - فعاذ الله أن يكون هذا من ذلك الباب ، أو أن يكون له مشاكلا أو مقاربا ، أو يكون انغبه عليه آثما ؛ بل يكون مأجوراً عند الله ، مشكوراً عند عباده الصالحين ، الذين لا يميل بهم هوى ، ولا تدخلهم عصبية . ولا يجمعهم على الباطل تحزب . ولا يلفتهم عن استبانة الحق حسد . وقد كنا زماناً نعتذر من الجهل . فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم ؛ وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة فصرنا نرضى بالسلامة . وليس هذا بمجيب مع انقلاب الأحوال . ولا ينسکر مع تغير الزمان ؛ وفي الله خاف . وهو المستعان .

ونذكر الأحاديث التي خالفنا الشيخ أبا عبيد ، رحمه الله ، في تفسيرها . على قلتها في جنب صوابه . وشكرنا ما نفعنا الله به من علمه ؛ معتدين في ذلك بأمرين ، أحدهما : ما أوجبه الله على من علم في علمه . والآخر : ألا يقف

ناظر في كتبنا على حرف خالفناه فيه ، فيقضى علينا بالغلط . ونحن من ذلك ،
إن شاء الله سالمون . وما أولاك - رحمك الله - بتدبر ما نقول ، فإن كان
حقا ، وكنت لله مريداً - أن تتلقاه بقلب سليم . وإن كان باطلا ، أو كان فيه
شيء ذهب عنا - أن تردنا عنه بالاحتجاج والبرهان ، فإن ذلك أبلغ في النصرة ،
وأوجب للمذر ، وأشفى للقلوب » .

(٨) تفسير غريب القرآن :

وهو في حقيقة أمره متم لمشكل القرآن . وقد قال ابن قتيبة في المشكل
ص ٢٥ : « وأفردت للغريب كتاباً كيلا يطول هذا الكتاب » .

وقال في مقدمة الغريب : « نفتح كتابنا هذا بذكر أسمائه الحسنى .
وصفاته العلى ؛ فنخبر بتأويلهما واشتقاقهما : وننبع ذلك ألفاظا كثر ترداها
في الكتاب لم تر بعض السور أولى بها من بعض . ثم نبتدى في تفسير غريب
القرآن دون تأويل مشكله ؛ إذ كنا قد أفردنا للمشكل كتاباً جامعاً كافياً
بحمد الله . وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا أن نختصر ونكمل ، وأن
نوضح ونجمل ؛ وألا نستشهد على اللفظ المبتذل ، ولانكثر الدلالة على الحرف
المستعمل ، وألا نحشو كتابنا بالنحو والحديث والأسانيد . فإننا لو فعلنا ذلك
في نقل الحديث : لاحتجنا أن نأتى بتفسير السلف ، رحمة الله عليهم ، ولو أتينا
بتلك الألفاظ كان كتابنا كسائر الكتب التي ألفها نقلة الحديث ... » .

ثم ذكر أنه لم يذكر اختلاف العلماء ، ولم يقم الدلائل على الاختار منها .
لأنه لو تكلف ذلك لأسهب في القول ، وأطال الكتاب ، وقطع منه طمع
المتحفظ ، وباعده من بغية المتأدب .

ثم ذكر أن كتابه هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين . لم يخرج فيه عن مذاهبهم . ولم يتكلف في الحروف التي ذكرها إلا اختيار أولى الأقاويل في اللغة ، وأشبهها بقصة الآية . وبين أنه نبذ منكر التأويل ، ومنحول التفسير . ثم سرد نماذج مختلفة من هذا المنكر والمذحول . وقال على إثره : « وبالله نستعين ، وإياه نسأل التوفيق للصواب » .

(٩) كتاب الأنواء :

ذكرة ابن قتيبة في كتاب المعاني ١/٣٧٥ ، ٧٣٨ .

وقال في مقدمته :

« هذا كتاب أخبرت فيه بمذاهب العرب في علم النجوم : مطالعها ومساقطها ، وصفاتها وصورها ، وأسماء منازل القمر منها وأنوائها ، وفرق ما بين يمانها وشاميتها ، والأزمنة وفصولها ، والأمطار وأوقاتها . واختلاف أسمائها في الفصول ، وأوقات التبدى لتتبع مساقط الغيث ، وارتداد الكلا . وأوقات حضور المياه . وما أودعته العرب أسجاعها في طلوع كل نجم : من الدلالات على الحوادث عند طلوعه . وعن الرياح وأفعالها . وتحديد مهابها . وأوقات بوارحها . وعن الفلك والقطب والمجرة والبروج والنجوم . والخنس . والشمس والقمر ودَرَارِي الكواكب ومشاهرها . والاهتداء بها . وعن السحاب ومخائله ، ماطره ومُخْلِفَه ، والبروق : خُلْبُها وصادقها ؛ وأمارات خصب الزمان وجُدوبته . إلى غير ذلك .

وكان غرضى فى جميع ما أتيت به، الاقتصار على ما تعرف العرب فى ذلك واستعمله ، دون ما يدعيه المنسوبون إلى الفلسفة من الأعاجم ، ودون ما يدعيه أصحاب الحساب ؛ فإننى رأيت علم العرب هو : العلم الظاهر للعيان ، الصادق عند الامتحان ، النافع لتنازل البر ، وراكب البحر ، وابن السبيل . يقول الله جل وعز : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم تهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾ فكم من قوم حاد بهم الليل عن سواء السبيل فى لجج البحار ، وفى المهامه والقفار ، حتى أشرفوا على الهلاك . ثم نجاهم الله بنجم أمره ، أو بريح استنشأوها .

وقال ابن أحر وذكر فلاة :

يُهْلُ بِالْفَرْقَدِ رُكْبَانُهَا كَأُيْهْلِ الرَّاكِبِ الْمُقْتَمِرِ^(١)

وهؤلاء قوم ضلوا الطريق ، وتمادت بهم الحيرة ، حتى خشوا الملكة ، ثم لاح لهم الفرقد ففرقوا به تَمَتَّ وجهتهم ، فرفعوا أصواتهم بالعككير كما يرفع المقتمر صوته بالتلبية .

ويقال : إن أعلم العرب بالنجوم : كلب وبنوشيبان ، وإن العلم من كلب فى ماوية ، ومن شيبان : فى مُرَّة .

صحبنى رجل من الأعراب فى فلاة ليلا ، فأقبلتُ أسأله عن محال قوم من العرب ومياهم ، وجعل يدلنى على كل محلة بنجم ، وعلى كل خباء بنجم ، فربما أشار إلى النجم وسماه ، وربما قال لى : تراه ، وربما قال لى : وَلَّ وجهك كذا — أى : اجعل مسيرك بنجم كذا — حتى تأتيتهم . فرأيتُ النجوم تقودهم إلى موضع حاجاتهم ، كما تقود مَهَامِيع الطارِيق سالِك العمارات

ولحاجتهم إلى التقلب في البلاد ، والتصرف إلى المعاش ، وعلمهم أن لا تقلب
ولا تصرف في الفلوات إلا بالنجوم — عُنُوا بمعرفة مناظرها .

ولحاجتهم إلى الانتقال عن محاضرتهم إلى المياه ، وعلمهم أن لا تُقلَّه إلا لوقتٍ
صحيح يوثق فيه بالغيث والكلاب — عُنُوا بمطالعها ومساوقها .

هذا مع الحاجة إلى معرفة وقت الطَّرْق ، ووقت النَّتَاج ، ووقت الفِصَال
ووقت غُور مياه الأرض وزياتها ، وتأبير النخل ؛ ووقت يَنْعُم الثمر ، ووقت
جِداده ، ووقت الحصاد ، ووقت وباء السنة في الناس ، وفي الإبل ، وغيرها من
النَّعَم ؛ بالطلوع والغروب .

وقد يحتاج نازل المدن ، وسالك العمارات — وإن كان مستغنياً في بعض
الأحوال عن هذا الشأن — إلى معرفته ، مُسْتَظْهِراً به النوايب في الأسفار
والنكبات ، ومعرفة ما يعرفون : من علامات الخصب والجذب ، وعلامات
السحاب الماطر ، والسحاب المُخْلِيف ، والبروق الصادقة والكاذبة ، والرياح
اللاقيحة والحائلة : ومعرفة للغارب والمشارق ، والزَّوال ، والفَجَرين ،
والشَّفَقَيْن ؛ ومعرفة سَمَت القبلة .

وقد كان هذا الشأن عزيزاً ، ولَمَّعْنُبُون به قليلاً ؛ والأدب غَضُرٌ ، والزمان
زمان — فكيف به اليوم : مع دُثُور العلم ، وموت الخواطر ، وإغراض
الناس ١٤ .

وقد قيَّدت بهذا الكتاب أطرافاً : من هذا الفن ؛ أدركت بعضها
بالتوقيف ، وبعضها بالاعتبار ؛ واستخرجت بعضها من الأشعار ؛ ونهت على

إغفال من أغفل من الشعراء ، وخالف ما عليه أكثرهم ، لشبهة دخلت عليه .
وما أبرأ إليك بعدُ من العثرة والزلة ، وما أستغنى منك — إن وقفت
على شيء — من التنبيه والدلالة ؛ ولا أستنكف من الرجوع إلى الصواب
عن الغلط ، فإن هذا الفن لطيف خفي ، وابن آدم إلى العجز والضعف والمجلة
(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) . ونحن نسأل الله أن ينفعنا وإياك بالعلم ،
ويعرفنا قدره ؛ ويجعل شغلنا بالعمل المقرب منه ، ويؤتينا بفضلَه أفضل ما آتاه
من أمّله بخير نية ، وأرشد هدىً إليه ، إنه الواسع الكريم .

وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب « الأنواء » من كتبه : كتاب « تأويل
مشكل القرآن » فقد ذكر في ص ٩ رأياً في قوله تعالى : ﴿ ما إن مفاعمه لتنوء
بالعصبة أولى القوة ﴾ ثم قال : « وهو قول أبي عبيدة ، وهذا قول قد بينت
فساده في كتابي المؤلف في تأويل مشكل القرآن » .

ولم ينص في المشكل على أن هذا الرأي لأبي عبيدة ، بل نسب « لبعض
أهل اللغة » وقد قلت في التعليق عليه : « يلوح لي أن ابن قتيبة يقصد بقوله
هذا أبا عبيدة . . . راجع تأويل مشكل القرآن ص ١٥٣ — ١٥٧ .

وذكر أيضاً كتاب الميسر والقдах في ص ١٠ ؛ فإنه أنشد قول الراعي :

إذا لم يكن رسلٌ يعود عليهمُ صر بنا لهم بالشوْحَطِ المتقوّبِ

ثم قال : « والشوْحَطِ المتقوّبِ : يعني القдах التي يضرب بها . وقد بينت
هذا في كتاب الميسر » . وما أشار إليه موجود في كتاب الميسر والقдах

وذكر أيضاً كتاب «الوحش» في ص ٤١ ؛ وهو من الكتب المفردة .

(١٠) كتاب فضل العرب والتنبيه على علومها :

ذكره ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء ٨/١ ، ٥٠ ، وفي عيون الأخبار

١٨٥/٢ ؛ ونقل منه نكتة في وصف الشعر . وقد طبع قسم : مما وجد منه ،
في كتاب رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد علي .

(١١) كتاب الميسر والقдах :

ذكره ابن قتيبة في كتاب إصلاح الغلط (لوحة ٢٦ — ب) ؛ حيث

يقول : « وقد ذكرت هذا في كتاب الميسر بأكثر من هذا الشرح ، ولم
يحتمل هذا الكتاب أن تتجاوز فيه مقدار ما ذكرنا . فإذا آثرت أن تعرف
أمر الميسر وكيفيته ، ويضح لك ما ذكرته في هذا الحديث أكثر من هذا
الوضوح — : نظرت في ذلك الكتاب إن شاء الله » .

وقد طبعه الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٣٤٢ هـ .

(١٢) كتاب المعارف :

ذكره ابن قتيبة في مقدمة عيون الأخبار . وقد طبع مرارا ؛ وأول من

طبعه المستشرق « وستنفل » سنة ١٨٤٠ م .

وقد جاء في مقدمة كتاب الفاخر للمفضل بن سلامة ص ١ : عن أحمد بن

عبيد الله بن أحمد قال : « أملى علينا أبو بكر : محمد بن يحيى الصولي ، رحمه الله ،
هذا الكتاب ؛ وكان سبب إملائه إلناه علينا : أن رجلا ممن كان يحضر

مجلسه ، يحضر مجلس أبي بكر : محمد بن القاسم الأنباري ، رحمه الله ؛ فرأى يوماً في يده كتاباً ، فأخذه يقرأه ، فوجد مجلداً من كتاب الزاهر ؛ فقال : هذا منقول من كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة ؛ كما نقل أبو محمد بن قتيبة كتابه في المعارف ، من كتاب المحبر لابن حبيب ... » . وقد طبع كتاب المحبر في المتمدن سنة ١٣٦١ هـ . بتصحيح الدكتور إيلزه ليحتن شتير إحدى العالمات بأمریکا . وقد قرأت كتاب المحبر ، وقارنت بينه وبين المعارف ؛ فتبينت تجني الصولي ، وإسرافه في قوله : إن المعارف منقول منه . وتفصيل القول في ذلك يقع في موضعه : من مقدمة طبعة المعارف إن شاء الله . وأظن أن المسعودي يقصد كتاب المعارف ، في كلامه على تاريخ أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ؛ حيث يقول : « إن ابن قتيبة أخذ ما ذكره ، وجعله عن نفسه » .

وقد ذكر ابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء ، في كتاب المعارف ص ٢٣٨ .

(١٣) كتاب عيون الأخبار :

وفيه عشرة كتب :

كتاب الزهد	كتاب السلطان
» الإخوان	» الحرب
» الحوائج	» السؤدد
» الطعام	» الطبائع والأخلاق
» النساء	» العلم

وقد طبعته دار الكتب المصرية في سنة ١٣٤٣هـ، طبعة يشيع فيها التصحيف والتحريف . ولعل مرد ذلك إلى أنه من أوائل الكتب التي تولى القسم الأدبي تحقيقها . وقد أشار ابن قتيبة في مقدمته إلى كتاب الأثرية ، كما أشار إليه في ٣٢٥/١ ، وإلى كتاب أبيات المعاني ١٥٨/١ وكتاب الشعر والشعراء ١٨٥/٢ ، وكتاب العرب ١٨٥/٢ ، وكتاب غريب الحديث ٢٤٤/٢ ، ٩/٤ .

وقال أبو بكر بن دريد ، وقد تذاكر مع جماعة من جلسائه متنزهات الدنيا ، وسمى كل منهم أنزه مكان رآه : « هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم عن متنزهات القلوب ؟ فقالوا له : وما هي ؟ قال : عيون الأخبار للفقهي ، والزهرة لابن داود ، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر » .

(١٤) كتاب أدب الكاتب :

ويحتوى على أربعة كتب :

كتاب المعرفة كتاب تقويم اللسان

» تقويم اليد » الأنبية

وقد طبع منه اثنا عشر بابا فيليبزج سنة ١٨٧٧م ، ثم طبع كاملا في ليدن سنة ١٩٠١م ، وطبع بعد ذلك بمصر مراراً .

وقد شرح خطبته أبو الكرم المبارك بن الفاخر المتوفى سنة ٥٠٠ هـ .

وأبو القاسم: عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ. ومنه
نسخة خطية يدار الكتب المصرية كتبت سنة ٥٨٦ هـ.

وشرح أبياته أحمد بن محمد الخارزنجي المتوفى سنة ٣٤٨ هـ.

وقد شرحه أبو محمد: عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي
المتوفى سنة ٤٢١ هـ وسمى شرحه: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب. وقد
جعله ثلاثة أجزاء، قصر الأول منها على شرح الخطبة، والثاني على التنبيه
على الأغلاط، والثالث على شرح الأبيات. وقد طبع ببيروت سنة ١٩٠١ م
وجاء في بغية الوعاة - في ترجمة أحمد بن محمد بن أحمد بن المرسى أبي العباس
ابن بلال المتوفى قريباً من سنة ستين وأربعمائة - : « ونسب إليه ابن خلسة
النحوى شرح أدب الكاتب المسمى بالاقتضاب، وذكر: أن ابن السيد
البطليوسي أغار عليه وانتحلّه ». وقد شرحه أيضاً أبو منصور: موهوب بن
أحمد الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ؛ وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ، وقدم
له المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي.

كما شرحه سليمان بن محمد الزهراوى تلميذ أبي القاسم الزجاجي.

وشرحه أبو إبراهيم: إسحاق بن إبراهيم الفارابي: صاحب ديوان الأدب.

وشرحه أبو جعفر: أحمد بن داود بن يوسف الجذامي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.

وشرحه أبو الحزم: الحسن بن محمد بن يحيى بن عليم البطليوسي المتوفى

وقد ألف أبو الحسن : محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان - : كتابا في هذه ، أسماء : « غلط أدب الكاتب » .

وقال ابن خلدون في مقدمته ص ٥٥٣ أثناء كلامه على علم الأدب : « وسممنا من شيوخنا في مجالس التعاليم : أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي على الفاي البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها ، وفروع عنها ! » .

وقال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ٢/٢٤٦ : « والناس يقولون : إن أكثر أهل العلم يقولون : إن أدب الكاتب خطبة بلا كتاب ، و « إصلاح المنطق » كتاب بلا خطبة . وهذا فيه نوع تعصب عليه ، فإن أدب الكاتب قد حوى من كل شيء ، وهو مُفَعَّن ، وما أظن حَمَلهم على هذا القول إلا أن الخطبة طويلة ، والإصلاح بغير خطبة .. » .

(١٥) كتاب الشعر والشعراء :

طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في لندن سنة ١٨٧٥ م ؛ ثم أعيد طبعه فيها سنة ١٩٠٢ م . بتحقيق المستشرق الكبير دى غويه : وطبع بعد ذلك في مصر وفي غيرها ، وكان آخرها طبعة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر التى طبعها في مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٣٦٤ ، ١٣٦٦ ؛ وهى في جزئين عرضت لهما بالنقد في مجلة الكتاب في عدد يونية ١٩٤٦ صفحة ٢٩٥ - ٣٠٩ وعدد ديسمبر ١٩٥٠ م ، صفحة ٩٢٨ - ٩٣٤ .

وقد ذكر ابن قتيبة في هذا الكتاب — من كتبه — : كتاب الأشربة
١٣٨/١ ، ٨٢٧/٢ ، وكتاب العرب ٨/١ ، ٥٠ ، وكتاب غريب الحديث
٦٨٤/٢ .

(١٦) كتاب المسائل والأجوبة ، في الحديث واللغة :

طبعه الأستاذ حسام الدين القدسي . في مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ .
ويبدو أن هذه الطبعة غير كاملة ؛ لأنني وجدت ابن السيد قد نقل منه
نصاً في ص ٢٧ ليس له أثر فيها .

وقد أشار ابن قتيبة في هذا الكتاب ، إلى غريب الحديث ص ١٥ .

(١٧) كتاب الاختلاف في اللفظ ، والرد على الجهمية والمشبهة :

وقد طبعه القدسي في مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ بتحقيق الشيخ محمد
زاهد الكوثري .

(١٨) كتاب تأويل مشكل الحديث :

رواه عنه حفيده عبد الواحد بن أحمد كما في فهرس ابن خير ١٩٩ - ٢٠٠

طبع بمطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ، باسم : « تأويل
مختلف الحديث » .

وهو كتاب فريد ، تحدث فيه عن موقف علماء الكلام من أهل الحديث ،
وما تحدثوا عنهم به : من شتى التهم والمثالب ؛ وعرض بالنقد لما ذهب إليه
النظام : من اعتراضه على أبي بكر وعمر وعلى ، وطعنه على ابن مسعود وحذيفة
وأبي هريرة . ونقد كذلك ثمانية بن الأثرس ، ومحمد بن الجهم البرمكي

والجاحظ ، وأبا الهذيل العلاف ، وغيرهم ؛ وعرض لأهل الرأي ، وأبان عن منابذتهم للكتاب والسنة . وأدار الجزء الأكبر من كتابه على الأحاديث : التي ادعى عليها التناقض والاختلاف ومخالفة القرآن ؛ والأحاديث : التي زعموا أن النظر يدفعها ، وحجة العقل تدمغها ؛ فكشف عن معانيها التي صرفهم عن فقهها : الهوى الجوح ، ولفهم عن وجه الحق فيها : إلحاد الضمائر والقلوب والعقول .

(١٩) كتاب الأشربة^(١) :

طبعه الجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٢٦٦ هـ ، بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي ؛ وهي طبعة رديئة ، مليئة بالتصحيف والتحريف ؛ وقد قدت بعض ما فيها في سلسلة مقالات نشرتها بمجلة الرسالة سنة ١٩٤٩ م في العدد ٨٢٩ وما بعده .

(٢٠) كتاب المعاني الكبير :

قال ابن النديم : « إنه يحتوى على اثني عشر كتابا ، منها :

كتاب الفرس ، ستة وأربعون بابا .

» الإبل ، ستة عشر بابا .

» الحرب ، عشرة أبواب .

» القدور ، عشرون بابا .

» الديار ، عشرة أبواب .

» الرياح ، أحد وثلاثون بابا .

(١) راجع ابن خير ٢٦١

كتاب السباع والوحوش ، سبعة عشر بابا .

» الموام ، أربعة عشر بابا .

» الأيمان والدواهي ، سبعة أبواب .

» النساء والغزل ، باب واحد .

» الشيب والكبر ، ثمانية أبواب .

» تصحيف العلماء ، باب واحد .

وقد طبع ما وجد من هذا الكتاب في الهند سنة ١٣٦٨ هـ ، في ثلاثة مجلدات

بلغ عدد صفحاتها : ١٢٧٠ صفحة من القطع الكبير ، غير فهرسها .

وقد أشار ابن قتيبة إلى هذا الكتاب ، في عيون الأخبار ١/ ١٥٨ ؛

حيث يقول : « وقد فسرنا هذا الشعر في كتابي المؤلف في أبيات المعاني ،

في خلق الفرس » ؛ وما أشار إليه موجود في المعاني ١/ ١١٠ - ١١٢ .

وقد أشار المعاني إلى كتاب الأنواء ص ٣٧٥ ، ٧٣٨ .

والكتاب الثاني عشر من كتاب المعاني - وهو : « تصحيف العلماء » -

من الأقسام الضائعة من الكتاب ؛ وقد ألف ابن المزيان عبد الله بن جعفر

ابن درستويه (٢٨٨ - ٣٤٧) ، في نقده ، كتابا جعل عنوانه : « الرد على

ابن قتيبة في تصحيف العلماء » .

(٢١) كتاب عيون الشعر :

قال ابن النديم : « يحتوي على عشرة كتب منها :

كتاب المراتب

» القلائد

» المحاسن

» المشاهد

» الشواهد

» الجواهر

» المراكب .

(٢٢) كتاب التفتية :

قال ابن النديم : « هذا كتاب رأيت منه ثلاثة أجزاء ، نحو ستمائة ورقة ، يخط برك ، وكانت تنقص - على التقريب - جزئين ، وسألت عن هذا الكتاب جماعة : من أهل الخط ؛ فزعموا : أنه موجود ؛ وهو أكبر من كتاب البندنجي ، وأحسن من كتبه . »

(٢٣) كتاب العلم :

قال ابن النديم : « نحو خمسين ورقة . »

(٢٤) كتاب جامع النحو الكبير .

(٢٥) » جامع النحو الصغير .

(٢٦) » الحكاية والمحكى .

(٢٧) » الخليل .

- (٢٨) كتاب إعراب القرآن .
- (٢٩) » ديون الكتاب .
- (٣٠) » فرائد الدر .
- (٣١) » خلق الإنسان .
- (٣٢) » القراءات .
- وقد أشار إليه في تأويل مشكل القرآن ص ٤٥ .
- (٣٣) كتاب دلائل النبوة ، ويسميه القاضى عياض فى المدارك :
- » أعلام النبوة » .
- وقد ذكره السخاوى فى الإعلان بالتوبيخ ٩١ ، ورواه عنه قاسم بن أصبغ
- وابنه أحمد كما فى فهرس ابن خير ص ١٥١
- (٣٤) كتاب جامع الفقه .
- (٣٥) » حكم الأمثال .
- (٣٦) » آداب العشرة .
- (٣٧) » التفسير ، ذكره القاضى عياض .
- (٣٨) » معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، ذكره أبو الطيب
- الحامى فى مرانب النحويين .
- (٣٩) » تأويل الرؤيا ، ذكره ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار .
- (٤٠) » استماع الفناء بالألحان .
- (٤١) » الرد على القائل بخلق القرآن .
- (٤٢) » آداب القراءة .

(٤٣) « الجوابات الحاضرة .

(٤٤) « تأويل مشكل القرآن .

أشار إليه ابن قتيبة في أدب الكاتب ص ١٩ وفي تأويل مختلف الحديث ص ٨٣ ، ٣١٤ وفي كتاب « الأنواء » ص ٩ وفي كثير من صفحات تفسير غريب القرآن .

وقد ذكر فيه من كتبه : كتاب « القراءات » ص ٤٥ وكتاب تفسير غريب الحديث ص ٢٨ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ٢٠٥ ، وكتاب تفسير غريب القرآن ص ٢٥ .

(٤٥) كتاب الجرائم .

وتوجد منه نسخة خطية عتيقة ، في المكتبة الظاهرية (٥٩ لفة) ، تقع في ٤٤٠ صفحة ؛ كتب عليها : « كتاب الجرائم ، مستوعب لأسماء أصول العالم والبهائم والوحش والطيور والسباع والهوام ، وكل نسمة تعرف ؛ ومتصرفاتهم ، وأفعالهم ؛ وأسماء أنواع الأرض والشجر والنبات ؛ وغير ذلك ؛ والوحوش ، وقوافي الشعر . تأليف : أبي محمد : عبد الله بن مسلم » . ومجلد كتاب الجرائم هذا يحتوي على عدة كتب لنونية ، نشر منها الأب موريس بويجس كتاب : « النعم والبهائم والوحش والسباع والطيور ، وحشرات الأرض » ؛ سنة ١٩٠٨ م ونسبه لأبي عبيد : القاسم بن سلام .

كما نشر الدكتور « أوغست هفتر » كتاب : « النخل والسكرم » في مجلة المشرق ، ونسبه للأصمعي . ثم أعاد نشره « الأب لويس شيخو » في

المجموعة اللغوية التي سماها : « البلغة في شذور اللغة » ولكنه لم يرتض نسبته للأصمى ، ونسبه لأبي عبيد ؛ وقال : « ومما يحملنا إلى نسبته لأبي عبيد : أن الشروح للفردات توافق ما جاء في لسان العرب والمخصص ، منسوبا لأبي عبيد أكثر منها للأصمى ؛ ومن المحتمل أيضا : أن يكون الكتاب لأبي حاتم السجستاني تلميذ الأصمى ... » .

وقد نشر « شيخو » أيضا — من كتاب الجرائم — كتاب : « الرجل والنزل » ؛ وشك في نسبته لابن قتيبة ؛ لأنه لم يذكره أحد ضمن مصنفاته ؛ ومال إلى أنه لأبي عبيد ؛ لأن معظم مضامين هذا الكتاب قد رويت في اللسان والمخصص منسوبة له .

وقد نشر أيضا منه تلك المجموعة فصلا عنوانه : « أبواب اللب والشراب » ؛ ولم يحاول نسبته إلى أحد غير ابن قتيبة .

ولسنا نستطيع أن نتبين : هل هذه الكتب المنشورة من كتاب الجرائم لابن قتيبة ؟ أم هي ملغاة به ؟ : لأننا لم نحصل بعد على صورة منه ؛ كما لا نستطيع كذلك : أن ندفع الكتاب عن ابن قتيبة ؛ لأن المترجمين له لم يذكروه في كتبه ؛ ولأن بعض شروح الكتب التي يحتويها توافق ما نسب في كتب اللغة لأبي عبيد ، أو للأصمى ، أو لغيرهما ؛ فمن طبيعة التأليف اللغوي النقل ولا سيما عن أعلامها السابقين ؛ ولم يزعم المترجمون ولا زعم لهم زاعم : أن الكتب التي يذكرونها لمن يترجمون لهم ، هي على سبيل الحصر والاستقراء .

(٤٦) كتاب معاني القرآن :

وقد قرأه عليه قاسم بن أصبغ ، المتوفى سنة ٣٤٠ هـ . وذكره القاضى عياض فى ترجمة ابنه أحمد .

* * *

هذه أسماء كتب ابن قتيبة بعد إسقاط ما كرره المترجمون له : فقد ذكروا له كتباً كثيرة ، وهى فى حقيقة أمرها أجزاء من كتب ؛ ككتاب : « الفرس » الذى ذكره القفطى ، وهو من « معانى الشعر » ؛ وكتاب : « تقويم اللسان » الذى أشار إليه صاحب كشف الظنون ، فإنه من « أدب الكاتب » ؛ وكتاب : « المراتب والمناقب » الذى ذكره ابن النديم وهو من « عيون الشعر » ؛ وكتاب : « الأبنية » الذى ذكره القاضى عياض ، فإنه من « أدب الكاتب » .

وعدة الكتب التى ذكرناها هنا : سبعة وأربعون كتاباً ، منها أربعة كتب تشتمل على اثنين وخمسين كتاباً ، كما سبق . فأين بقية كتبه التى قال أبو العلاء المعرى : إنها خمسة وستون كتاباً ؟ .

هل هى كتب أخرى مستقلة ضل عن التاريخ ذكرها ؟ أم هى أجزاء من تلك الكتب المشتملة على كتب عدّها العادون كتباً مفردة ؟ . علم ذلك عند علام الغيوب .

ولست أميل إلى تصديق صاحب « التحديث بمناقب أهل الحديث » ، فى قوله الذى انفرد به : إن كتب ابن قتيبة زهاء ثلاثمائة كتاب . فلو كان

ذلك كذلك : لاهتم ابن النديم ببيانها ، كما صنع في تراجم المؤلفين المكثرين :
من أمثال أبي عبيدة ، والمدائني ، وهشام الكلبي .

* * *

وقد نسب إلى ابن قتيبة كتاب مشهور شهرة بطلان نسبه إليه ؛ وهو
كتاب : « الإمامة والسياسة » .

وهل يسوغ هذه النسبة عقل أمع عرفانه : بأن مؤلف « الإمامة والسياسة »
ذكر : أنه استمد معارفه من أناس حضروا ففتح الأندلس في سنة ٩٢ هـ .
وأن موسى بن نصير غزا مدينة مراکش في زمن الرشيد ؛ مع أن ابن قتيبة ولد
في سنة ٢١٣ ، ومات في سنة ٢٧٦ ؛ ولم تكن مدينة مراکش إلا في سنة ٤٥٤ هـ :
في عهد يوسف بن تاشفين ، سلطان المرابطين . ١٩ .

إن هذا وحده يدفع نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة ، فضلا عن قرآن وأدلة
أخرى كلها يثبت تزوير هذه النسبة .

* * *

وقد نسبت إليه أيضاً : « وصية إلى ولده » ؛ نشرها الدكتور إسحاق
موسى الحسيني في مجلة الجامعة الأمريكية ببيروت ، عن مجموعة خطية محفوظة
بمكتبة تلك الجامعة ، كتبت في الإسكندرية سنة ٤٨٦ هـ وقد أقيمت على
قراءة هذه الوصية : فرحاً مشوقاً ؛ وما إن فرغت من قراءتها حتى كان
الشك في نسبتها إليه قد قرّر قراره في نفسه ؛ لأن معانيها سطحية مفككة ،

وأفكارها ساذجة محتاجة ؛ وأسلوبها يبين أسلوب ابن قتيبة المشرق الرصين وإن شئت فاقرأ فيها قول كاتبها : « يا بني، إذا لقيت أحداً من إخواني وأصحابي : فأقرهم مني السلام ؛ وأخبرهم عنى بالله عز وجل ، قال : ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقية ، كمن متبعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ ، ﴿ فلا تفرّ منكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور ﴾ . واعلم : أن الله عز وجل بنى داراً لمن لا دار له ، يجمع فيها من لا فعل له ؟ » .

« يا بني قد صحبت لك طوائف من الناس ، وبلوت أخبارهم ؛ فما رأيت طائفة أجل وأعظم قدراً من أهل الفقر إلى الله عز وجل ، والفاقة والمسكنة إلى الله عز وجل ؛ فالزمهم وجالسهم واخدمهم بنفسك ، وتواضع لهم بحسبك ؛ وتقرب إلى الله عز وجل بالنظر إليهم ، وواسهم بما قدرت عليه ، وتغافل عن زلاتهم ، وأحسن ظنك بهم ؛ فإن الله عز وجل يؤيدهم إذا ماتوا إن شاء الله » .

« وعليك بمجالسة الفقراء أهل الفقر والمسكنة إلى الله ، واخدمهم بنفسك ، وتحبب إلى الله عز وجل في المحبة لهم ، وابذل لهم مالك وجاهك ، وتبرك بدعائهم ، ودم على صحبتهم ؛ فإن لهم يوم القيامة دولة ، وعند الله تعالى شفاعة » .

« يا بني إنى راغب إلى الله في مسألتى له : أن يجعلك خلفاً من بعدى ، تخلفنى فى على ومذهبي . »

« يا بني طب عن الأمة نفسك ، وارض بالرحمن أنسا ، فما أحد يعدل في الخبرة فلسا » .

وما أظن إلا أن هذه الفقرات ستثير في نفسك الشك : إن كنت لكتب ابن قتيبة من الفارثيين ؛ كما أنى لا أعلم لابن قتيبة مذهبا صوفيا ، يتمنى أن يخلفه ابنه فيه . ولو كان لتحدث عنه الصوفية وغيرهم . على أن هذه « الوصية » قطعة من كتاب لم يصل إلينا كاملا ؛ وآية ذلك ما جاء في صفحة ٧ : « واعلم يا بني : أن أصول البدع كلها من خمسة : من القدرة ، والمرجئة ، والجهمية ، والرافضة ، والخواارج . ومنها تشعب الفرق كلها حتى تنهى إلى ثلاث وسبعين فرقة ؛ للذى جاء به الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال : ستقترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة : اثنتان وسبعون منها هلكة ، والواحدة منها ناجية : الذى أنا عليه وأصحابي والجهمية : الذين يقولون : إن القرآن مخلوق ؛ ويؤمنون بالقدر ؛ ويقولون : إن الله عز وجل حال في كل شيء ، كالشيء في الشيء ، وكالروح في الجسد . والخواارج : هم الذين يقولون بتقديم الشيخين : أبى بكر وعمر ؛ ويرون إمامتهما ، ويتبرءون من عثمان وعلى . وقد بينت وسميت أئمتهم في هذا الكتاب ا » .

وليس في « الوصية » بيان عن الخوارج ، ولا تسمية لأئمتهم ، وكان خليفة بنائرها أن يشير إلى ذلك .

ولو كانت تلك الوصية لابن قتيبة حقا . لما كانت إلا لابنه أحمد ؛ ولو

كانت له : لحدّث بها فيما حدث عن أبيه ، ولأكثر من التحديث بها لأسباب شتى : من حوافز النفس ، ودواعي الاجتماع .

* * *

وكان من شأن ابن قتيبة : أن يخلو إلى نفسه في بيته ، فيؤلف كتبه ، ويجوّد تأليفها ؛ ثم يخرجها للناس ويقرئها لمن شاء : من طلاب علمه وأدبه .

وقد تلمذ له عدد كبير ، نذكر منهم ما يلي :

(١) ابنه أحمد ، قال القاضي عياض في ترجمته له في كتاب « المدارك » : « أبو جعفر بن قتيبة ؛ هو أحمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري ، البغدادي النشأة . كان مالكي المذهب ، من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه ؛ وكان يحفظها كما يحفظ القرآن ، ويردّ فيها من حفظه النقطة والشكلة : وما معه نسخة ! كان أبوه أبو محمد حفظها إياه في اللوح ! وعدتها أحد وعشرون مصنفًا : كتاب المشكل ، معاني القرآن ، غريب القرآن ، غريب الحديث ، عيون الأخبار ، مختلف الحديث ، التفسير ، الفقه ، المعارف ، أعلام النبوة ، العرب والعجم ، الأنواء ، طبقات الشعراء ، معاني الشعر ، إصلاح الغلط ، أدب الكتاب ، الأبنية ، النحو ، المسائل ، القراءات .

سمع منه خلق عظيم من الجلالة — بالعراق ومصر — كأحمد بن ولاد ، وأبي جعفر النحاس ، وأبي عاصم المظفر بن أحمد ، وأبي علي القالي ؛ وغيرهم : من جلة أهل الأدب والرواية .

وكان مجلسه : لعيون الناس ، وأعيان النبهاء . ولم يكن عنده حديث إلا ما في كتب أبيه . ولى قضاء مصر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . وردّها : وقد لبس السواد ؛ وحكم في جامعها ، واستخلف الفقيه أبا الذكر المالكي على فرض النساء . وكان في خلقه حدة . وتوفي في ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين بمصر ، بعد صرفة . وكانت ولايته القضاء بمصر : ثلاثة أشهر .

وله ابن اسمه : عبد الواحد ، روى عن أبيه ؛ سمع منه أبو عبيد الله الوشاء المصري .

وقال الخطيب البغدادي - في ترجمة عبد الواحد ٨/١١ : « يكنى عبدُ الواحد : أبا أحمد . ذكر : أنه ولد ببغداد في سنة سبعين ومائتين ، وانتقل إلى مصر فسكنها ، وروى بها - عن أبيه عن جده - كثره . سمع منه أبو الفتح بن مسرور البليخي ، وقال : كان ثقة » .

ومن الكتب التي قرأها أبو علي القالي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ) على أبي جعفر : أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة - : كتاب عيون الاخبار ، وأدب الكاتب .

وقد قرأ عليه كتب أبيه كلها : أبو القاسم الآمدي ، المتوفى سنة ٣٧٠ هـ . وقد قرأها جميعاً على الآمدي : أبو غالب : محمد بن بشران بن دينار ، المتوفى سنة ٤٠٩ هـ .

قد قرأ على أحمد أيضاً : أبو الفتح : محمد بن جعفر الراعي ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي : شارح خطبة أدب الكاتب .

(٢) أحمد بن مروان المالكى ، المتوفى سنة ٢٩٨ هـ . وما رواه عنه :
كتاب تأويل مختلف الحديث ؛ وقد وصل إلينا بروايته .

(٣) أبو بكر : محمد بن خلف بن المرزبان ، المتوفى سنة ٣٠٩ هـ .

(٤) أبو القاسم : إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ ، المتوفى سنة
٣١٣ هـ . وقد روى عن ابن قتيبة ، كل مصنفاته .

(٥) أبو محمد : عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى السكرى ،
المتوفى سنة ٣٢٣ هـ . وقد سمع منه غريب الحديث ، وإصلاح الفلظ فى سنة
٦٢٨ هـ . وقد وصل إلينا من روايته عنه ، كتاب المسائل والأجوبة ،
وإصلاح الفلظ .

(٦) أبو القاسم : عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن بكير التميمى ، المتوفى
سنة ٣٣٤ هـ .

(٧) المهيم بن كليب الشامي ، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ . وقد أخذ عنه
الأدب خاصة .

(٨) قاسم بن أصبغ الأندلسى (٢٤٧ - ٣٤٠ هـ) . الذى رحل إلى المشرق
فى سنة ٢٧٤ . وقد قرأ عليه المعارف ، وشرح غريب الحديث .

(٩) عبد الله بن جعفر بن دُرستويه الفسوي (٢٥٧ - ٣٥٥ هـ) وقد
وصل إلينا من رواياته عنه : كتاب الأشربة .

(١٠) أبو القاسم : عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد الأزدي ، المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

(١١) أبو بكر : أحمد بن الحسين بن إبراهيم الدينوري . وقد روى عنه : مختلف الحديث .

(١٢) أبو بكر : أحمد بن محمد بن الحسن الدينوري . قرأ عليه : تأويل مختلف الحديث ؛ كما قال ابن بطّة .

(١٣) أبو عبد الله : محمد بن أبي الأسود البلي ، المتوفى سنة ٣٤٣ هـ .

(١٤) أبو اليسر : إبراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي ، المتوفى سنة ٢٩٨ هـ .

(١٥) أبو العباس : أحمد بن محمد بن عميرة الأروائي المروزي .

(١٦) أبو العباس : محمد بن علي بن أحمد الكرجي مات ٣٤٢ هـ .

(١٧) أبو رجاء : محمد بن حامد بن الحارث البغدادي المتوفى ٣٤٣ هـ .

* * *

هؤلاء هم الذين وقفنا على أنهم تعلموا لابن قتيبة ، وقرأوا عليه كتبه كلها أو بعضها ، ونهضوا بأمانة نشرها على الآفاق .

ولقد كان ابن قتيبة ، كريماً بعلمه ، سنجاً في إقراء كتبه ؛ لم يؤثر عنه : أنه حبسها عن طلابها حتى يقبض أجره ، كما أثر عن قرينه : أبي العباس المبرد (٢١٠ — ٢٨٥) ؛ الذي كان يساوم طلابه ويمتنع عن تحديث جماعتهم : إذا كان فيهم فرد واحد لم يدفع أجره مقدماً ؛ ولو كان هذا الفرد غريباً حريباً .

* * *

وظل ابن قتيبة : يقرئ كُتبه ببغداد ، إلى حين وفاته في خلافة المعتد
الذي بويغ سنة ٢٥٦ ، ومات سنة ٢٧٩ .

وكان سبب وفاة ابن قتيبة - فيما يقول تلميذه أبو القاسم : إبراهيم الصائغ :
« أنه أكل هريسة : فأصاب حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغشى عليه
إلى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ ؛ فما زال يتشهد إلى
وقت السحر ، ثم مات . وذلك : أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين
ومائتين » .

وقد روى الخطيب البغدادي رواية أخرى عن تاريخ وفاته ، فقال :
(١٧٠/١٠) : « قرأت على الحسن بن أبي بكر ، عن أحمد بن كامل القاضي ،
قال : ومات عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، في ذى القعدة سنة سبعين
ومائتين » . وهي رواية مدخولة ؛ لأن الثابت الذي لم يشبه شك : أن قاسم
بن أصبغ الأندلسي سمع منه لما رحل إلى بغداد ؛ وكانت رحلته في سنة ٢٧٤ هـ .
وقد جاء في المنتظم لابن الجوزي ١٠٢/٥ : « وذكر بعض أهل النقل :
أنه مات بالكوفة ، ودفن إلى جنب قبر أبي حازم القاضي » ؛ وهو قول
مجهول ، لم يعبأ به أحد : من المؤرخين .

وقد جاء في ص ٢٠٠ من طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر : محمد
ابن الحسن الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ : أن ابن قتيبة « توفي سنة ست
وتسعين ومائتين » : ولا مرأى في أن « تسعين » محرفة عن « سبعين » .

لم يتول ابن قتيبة من المناصب - فيما علمنا - إلا منصب القضاء بالديّونور ؛
ولذلك قيل له : الديّونوري . ولسنا نعرف : في أي سنة تولى قضاء هذه
المدينة ، ولا مدة بقائه على قضائها ، ولا سبب خروجه منه ؟ ولا نعلم : من
الذي ولّاه ؟ وإن كان يغلب على ظننا : أن الذي ولّاه : الوزير أبو الحسن
عبيد الله بن يحيى بن خاقان ؛ وزير المتوكل ثم المعتمد . وكان المتوكل قد
استوزر محمد بن الفضل الجرجرائي مديدة بعد قتله لمحمد بن عبد الملك الزيات
في سنة ٢٣٣ هـ ؛ ثم كثرت السعيات به فعزله ، وقال : أريد حدثاً أستوزره ؛
لأنني قد ضجرت من المشايخ . فأشير عليه : بعبيد الله بن يحيى بن خاقان . وظل
عبيد الله وزيراً حتى قتل المتوكل في سنة ٢٧٤ ؛ وفي سنة ٢٤٨ : نكبه الخليفة
المستعين ونفاه إلى بركة ؛ وعاد عبيد الله إلى بغداد سنة ٢٥٣ ؛ ثم استوزره
المعتمد في شعبان سنة ٢٥٦ ، ولبت في وزارته حتى مات ؛ وكان سبب موته :
أنه لعب في الميدان مع خادم له اسمه : « رشيق » ؛ فصدمه : فسقط عبيد الله
عن فرسه ، ومات من يومه ؛ فصلى عليه « الموفق » ومشى في جنازته ؛ وذلك :
يوم الجمعة لعشر خلون من ذي القعدة سنة ثلاث وستين ومائتين .

وقد كان بين ابن قتيبة وبين عبيد الله ، مودة حميمة على أن يصنف له
كتاب : « أدب الكاتب » ؛ وأن يقول عنه في مقدمته : « .. فالحمد لله
الذي أعاد الوزير أبا الحسن - أيده الله - من هذه الرذيلة ، وأبانه بالفضيلة ؛
وحياه بنحيم السلف الصالح ؛ وردّاه رداء الإيمان ، وغشاه بنوره ؛ وجعله هدى
من الضلالات ، ومصباحاً في الظلمات ؛ وعرفه ما اختلف فيه المختلفون ، على

سنن الكتاب والسنة؛ فقلوب الخيار به مُفَقِّلَةٌ ، ونفوسهم إليه مائلة وأيديهم إلى الله فيه - مظانّ القبول - ممتدة ؛ وألسنتهم بالدعاء له شافعة : يَهْجَعُ ويستيقظون ، ويغفل ولا يغفلون ؛ وَحَقٌّ لِمَنْ قَامَ لِلَّهِ مقامه ، وصبر على الجهاد صبره ، ونوى فيه نِيَّتُهُ - : أَنْ يُلبسه الله لباس الضمير ، ويرُدِّيه رداء العمل الصالح ، ويَصُورَ إليه مختلفات القلوب ، ويسعده بلسان الصدق في الآخرين .

والذي رجح ظني - في أن عبید الله بن يحيى هو الذي ولى ابن قتيبة قضاء « الدينور » - قول أبي القاسم الزجاجي في شرح خطبة أدب الكاتب ص ٣٨ - تعريباً على قول ابن قتيبة . « فالحمد لله الذي أعاد الوزير أبا الحسن » - : « يعني : الخاقاني ؛ وهو عبید الله بن يحيى الخاقاني ؛ لأنه عمل له هذا الكتاب ، فأحسن صلته ، واصطنعه وصرّفه » .

وإني أرى : أن ابن قتيبة ألف « أدب الكاتب » لعبید الله في وزارته للمعتمد ؛ لافي وزارته للمتوكل ؛ وقد وزر للمعتمد من سنة ٢٥٦ إلى سنة ٢٦٣ هـ . وهذا الرأي الذي ارتأيتُهُ ، يتعارض على ما ذهب إليه ابن السيد والجواليقي ؛ فإنهما ذهبا إلى أنه ألفه له في وزارته للمتوكل ؛ حيث يقول ابن السيد في الاقتضاب ص ٢٤ : « يعني عبید الله بن يحيى بن خاقان ؛ وكان وزير المتوكل فعمل له ابن قتيبة هذا الكتاب ، وتوسل به إليه ؛ فأحسن عبید الله صلته ، واصطنعه ، وعنى به عند المتوكل ، حتى صرفه في بعض أعماله » ؛ ويقول الجواليقي في شرحه ص ٤٤ : « يعني بالوزير عبید الله بن يحيى بن خاقان ،

كاتب المتوكل : لأنه عمل له هذا الكتاب ، فاصطنعه ، وأحسن صلته .

ولا سراة في أنهما أخطأ في ذلك خطأ مبيناً ؛ والدليل على خطئهما لا حب لا ينفذ فيه طعن طاعن ، ولا يطُورُ به ريبٌ مُرتاب ؛ فقد قال ابن قتيبة بعيد كلامه على الوزير : « وأى موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتّاب ، اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه ، وارتضاه لسره : فقرأ عليه كتاباً ذكر فيه « حاضرٌ طيء » فصَحَّقه تصحيحاً أضحك الحاضرين » . وقال ابن السيد في شرحه ص ٢٧ : « هذا الكتاب هو : شجاع بن القاسم ، كاتب أوتامش التركي ؛ وكان يتولى عرض الكتب على المستعين أحمد بن محمد المعتصم . وكان جاهلاً لا يحسن القراءة » . وقال الجواليقي في ص ٩ : « هذا : شجاع بن القاسم كاتب أوتامش التركي ؛ قرأ على المستعين ، وصَحَّف هذه اللفظة ، فقال : حاء ضرطى » . ولو قد فطن ابن السيد والجواليقي لما نقلاه عن الزجاجي : من أن ابن قتيبة يقصد بالكتاب : شجاع ابن القاسم ؛ وبالخليفة : المستعين ؛ لما تردّيا في هذا الخطأ ؛ فإن المستعين : قد بوبع بالخلافة سنة ٢٤٨ ، وخلع في سنة ٢٥٢ هـ .

فكيف يتصور أن يؤلف ابن قتيبة هذا الكتاب لعبيد الله أيام وزارته للمتوكل ، مع أنه يذكر في مقدمته قصة جرت للخليفة المستعين مع كاتبه شجاع بن القاسم ؟ ! حقا إن هذا لشيء عجاب .

* * *

وقد انصل ابن قتيبة بالأمير : محمد بن عبد الله بن طاهر ؛ فأغدق عليه

من معروفه ، لعرفانه بقدرة ، ولأن إكرام العلماء والأدباء سجية من سجاياه النبيلة، ورثها عن أبيه عبدالله بن طاهر ، أمير خراسان ، المتوفى سنة ٢٣٠ هـ. ومن مظاهر إكرام عبدالله للعلماء : مواقفه الخالدة مع أبي عبيد : القاسم بن سلام ، المتوفى سنة ٢٢٣ هـ . عرض عليه أبو عبيد كتابه : « غريب الحديث » ؛ فاستحسنه وقال : إن عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب ، لتحقيق أن لا يُخَوَّج إلى طلب المعاش . وأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر وكان كلما أهداه أبو عبيد كتابا من مؤلفاته : حمل إليه مالا خطيراً . وكرم عبدالله بن طاهر ، إرثاً كذلك من والده طاهر بن الحسين — حين مضى إلى خراسان — بمدينة مَرَوْ ، فطاب رجلا يحدنه ، فقيل له : ما ههنا إلا رجل مؤدّب ؛ فأدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلام ، فوجده أعلم الناس بأيام الناس ، والنحو ، واللغة ، والفقه ؛ فقال له : من المظالم تركت أنت بهذا البلد . فدفع إليه ألف دينار ، وقال له : أنا موجه إلى خراسان إلى حرب ، وليس أحب استصحابك ؛ شفقاً بك ؛ فأنفق هذا حتى أعود إليك . فألف أبو عبيد « الغريب المصنف » إلى أن عاد طاهر من خراسان ، فحمله معه إلى سُرَّ مَنْ رَأَى .

ومن مظاهر إكرام « آل طاهر » للعلماء ، ما صنعه « طاهر بن عبدالله » : من استقدمه لأبي سعيد الضرير من بغداد إلى نيسابور ، وتكفله بمعيشته ؛ ليفرغ إلى تعليم الناس ما حمل من علم وأدب . وقد قدم عليه ابن قتيبة من بغداد : فأخذ عنه ، وانتفع به ، وكان له قدوة حسنة .

ومن مظاهر إكرامهم العلماء كذلك ، استقدامهم إلى هراة : الحافظ
أبا جعفر السرخسي المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٣ هـ .

وقد جرى محمد بن عبد الله بن طاهر ، على شاكله قومه : في العناية
بالعلماء والأدباء ، والإلطاف لهم ؛ وعرف هؤلاء قدره ، ونهبوا من ذكره
- وما كان خاملا - وأهدوا إليه مؤلفاتهم وما جادت به قرائحهم ؛ منذ
أن كان شاباً يافعاً .

ولقد سجل ابن قتيبة شعوره نحوه في رسالة كتب بها إليه ، وأثبتها
في عيون الأخبار ٢/٢٢٢ ؛ حيث يقول : « وكتبتُ إلى محمد بن عبد الله
ابن طاهر :

أما شكري للأمير على سالف معروفه : فقد أغار وأنجد . وأما ابتهاج
إلى الله في جزائه عني بالحسنى : فأخلص النية عند مظان القبول . وأما أملى :
فأحياء - على بعد العهد - بالأوه عندى - : إذ كان ماتقدم منه شافعاً في
في المزيدي . - وفُسحة وعده إياي عند مفارقتي له : إذ كان مؤذناً بالإيجاز .
وأما زللي في التأخر عما أوجب الله على له : فتمرون بالعقوبة فيما حرّمته من
عزّ رياسته ، ونباهة صحبته ، وعلوّ الدرجة به ؛ وإن كنت سائر أيام تنطاعي
عنه ، مُعتلياً بسبب لا خيار معه » .

ولست أعلم لابن قتيبة علاقة بعطاء عصره ، سوى علاقته بعبيد الله بن
خاقان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر .

وقد أشار هو إلى علاقة لم ينصح عنها : فأنبهم أمرها علينا ؛ حيث يقول

في عيون الأخبار ٢٨/١ : « وكتبتُ إلى بعض السلاطين كتابا ، وفي فصل منه : ولم يزل حَزَمَةُ الرجال يستحلون مرارة قول النصحاء ، ويستهدون العيوب ، ويستثيرون صواب الرأي من كلِّ حتى الأمة الوُكَّاء .

ومن احتاج إلى إقامة دليل على ما يدَّعيه - : من مودته ، ونقاء طويته . -
فقد أغنا في الله عن ذلك بما أوجبه الاضطرار ؛ إذ كنت أرجو بدوام نعمتك ، وارتفاع درجتك ؛ وانبساط جاهك ويدك - زيادة الحال .

آراء العلماء في ابن قتيبة :

١ - قال أبو منصور الأزهري (٢٨٢ - ٣٧٠ هـ) في مقدمة كتاب التهذيب ص ١٣ : « وإذ فرغنا من ذكر الأئبات المتقدمين ، والثقات المبرزين : من اللغويين ؛ وتسميتهم طبقة ، إعلاما لمن غبى عليه مكانهم من المعرفة ، كي يعتمدوهم فيما يجدون لهم من المؤلفات المروية عنهم - : فلنذكر بعقب ذكركم ، أقواما : تسموا بسمة المعرفة ، وعلم اللغة ؛ وألفوا كتباً : أودعوها الصحيح والسقيم ؛ وحشوها بألزال الفساد ، والمصحف المغير : الذي لا يتميز ما يصح منه إلا عند النِّقَاب المبرِّز ، والعالم القطان . لنحذر الأغمار اعتماد مادونوا ، والاستنامة إلى ما ألفوا . فمن المتقدمين : الليث بن المظفر ... وقطرب ... » ؛ ثم عرض الأزهري للجاحظ ، وتلميذه ابن قتيبة ، فقال ص ١٥ : « ومن تكلم في لغات العرب بما حضر لسانه ، وروى عن الأئمة في كلام العرب ما ليس من كلامهم - : عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ وكان أوتي : بسطة في لسانه ، وبيانا عذبا في خطابه ، ومجالا واسعا في فنونه ، غير أن

أهل المعرفة بلغات العرب ذمّوه ، وعن الصدق دفعوه ، وأخبر أبو عمر الزاهد : أنه جرى ذكره في مجلس أحمد بن يحيى [ثعلب] ، فقال : أعزبوا عن ذكر الجاحظ ، فإنه غير ثقة ولا مأمون .

وأما أبو محمد : عبد الله بن مسلم الدينوري : فإنه ألف كتاباً في مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتاب غريب الحديث ، وكتاباً في الأنواء ، وكتاباً في أدب الكتبة ؛ ورد على أبي عبيد حروفاً في غريب الحديث ، سماها : « إصلاح الغلط » ؛ وقد تصفّحتها كلها ، ووقفت على الحروف التي غلط فيها وعلى الأكثر الذي أصاب فيه . فأما الحروف التي غلط فيها : فإني أثبتتها في مواقعها من كتابي ، ودلت على موضع الصواب فيما غلط فيه .

وما رأيت أحداً يدفعه عن الصدق فيما يرويه : عن أبي حاتم السجزي ، والعباس بن الفرج الرّياشي ، وأبي سعيد الكفوف البغدادي .

فأما ما يستبد فيه برأيه - : من معنى غامض ؛ أو حرف : من علل التصريف والنحو ؛ مشكل ، أو حرف غريب - : فإنه ربما زلّ فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة .

وأنفيته يحدث بالظن فيما لا يعرفه ، ولا يحسنه .

ورأيت أبا بكر بن الأنباري : ينسبه إلى الغفلة ، والغباوة ، وقلة المعرفة . وقد ردّ عليه قريبا من ربع ما ألّفه : من مشكل القرآن .

ولالأزهرى عنه كلمة أخرى ، وردت في اللسان ٣٣٦/١٣ : « وقال

القتيبي في تفسير قوله تعالى ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أى : فرقنا ؛ وهو من زال يزول وأزله أنا . قال أبو منصور : وهذا غلط من القتيبي ، ولم يميز بين زال يزول ، وزال يزِيل ، كما فعل القراء .

وقد عرض أبو منصور الأزهرى للإسلام على رواية ابن قتيبة ، أثناء حديثه عن أبي حامد الخارزنجي البشّتي ، في مقدمة التهذيب ، إذ يقول : « ومن ألف في عصرنا هذا فصّحف وغير ، وأزال العربية عن وجهها - : أحمد بن محمد البشّتي ، فإنه ألف كتابا سماه : « التسكلة » ، أو ما إلى أنه كمل بكتابته كتاب : « العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد . ونظرت في أول كتاب البشّتي ، فرأيت أنه أثبت في صدره الكتب المؤلفة التي استخرج منها كتابه ، فعدها وقال : استخرجت ما وضعته في كتابي من هذه الكتب ، ولعل بعض الناس يبتغي العنتَ بتهجينه والقدح فيه ؛ لأنني أسندت ما فيه إلى هؤلاء العلماء من غير سماع ، وإنما إخباري عنهم إخباراً عن صحفهم : ولا يزرى ذلك على من عرف الفث من السمين ، وميز بين الصحيح والسقيم ، وقد فعل مثل ذلك أبو تراب صاحب كتاب : « الاعتقاب » ، فإنه روى عن الخليل وأبي عمرو بن العلاء ، والكسائي ، وبينه وبين هؤلاء فترة ، وكذلك القتيبي : روى عن سيديويه والأصمعي ، وأبي عمرو : وهو لم ير منهم أحداً » .

ثم عقب الأزهرى على قول البشّتي هذا ، بقوله ص ١٦ : « قد اعترف البشّتي : بأنه لا سماع له في شيء من هذه الكتب ، وأنه نقل ما نقل إلى كتابه من صحفهم ، واعتل : بأنه لا يزرى ذلك بمن عرف الفث من السمين . وليس

كما قال : لأنه اعترف : بأنه صحفى ، والصحفى إذا كان رأس ماله صحفاً
قرأها : فإنه يصحّف فيكثر ؛ وذلك : أنه يخبر عن كتب لم يسمع بها ،
ودفاتر لا يدري : أصحح ما كتب فيها أم لا ؟ وإن أكثر ما قرأنا : من
الصحف التى لم تضبط بالنقط الصحيح ، ولم يتول تصحيحها أهل المعرفة . -
لسقيمة ، لا يعتمد عليها إلا جاهل . وأما قوله : ان غيره من المصنفين ، روّوا
فى كتبهم عن لم يسموا منه ، مثل أبي تراب والقُتَيْبَى ، فليس رواية هذين
الرجلين عن لم يرياه ، حجة له : لأنهما وان كان لم يسمعا من كل من روّيا
عنه ، قد سمعا من جماعة : من الثقات المأمونين . فأما أبو تراب ...
وأما القُتَيْبَى : فإنه رجل سمع من أبي حاتم السّجّزى كقبة ، وسمع من
الرياشى فوائد جمّة ، وكانا من المعرفة والإتقان : بحيث يثنى بهما الخناصر ،
وسمع من أبي سعيد الضرير ، وسمع كتب أبي عُبَيْد ، وسمع من ابن
أخى الأصمى .

وما (أى أبو تراب وابن قتيبة) : من الشهرة وذهاب الصّيت ،
والتأليف الحسن ؛ بحيث يُغنى لهما عن خطيئة غلط ، ونَبَذَ زلّة تقع
فى كتبهما ... » .

* * *

٢ — قال أبو الطيب الحلبي ؛ المتوفى سنة ٣٥١ هـ : فى كتاب : « مراتب
النحويين » ، ص ١٣٧ : « وكان أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى :
أخذ عن أبي حاتم ، والرياشى ، وعبد الرحمن بن أخى الأصمى . وقد أخذ

ابن دريد عن هؤلاء كلهم ، وعن الأشقاء نَدَانِيَّ إِلَّا أَنْ ابْنَ قَتِيْبَةَ خَاطَ عَلَيْهِ
بِحِكَايَاتٍ عَنِ الْكُوفِيِّينَ ، لَمْ يَكُنْ أَخْذَهَا عَنْ ثِقَاتٍ

وَكَانَ يَشْرَعُ فِي أَشْيَاءَ لَا يَقُومُ بِهَا : نَحْوُ تَعْرِضِهِ لِتَأْلِيفِ كِتَابِهِ فِي النُّجُو ،
وَكِتَابِهِ فِي تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا ، وَكِتَابِهِ فِي مَعْجَزَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى
آلِهِ ، وَعَيُونِ الْأَخْبَارِ وَالْمَعَارِفِ ، وَالشُّعْرَاءِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ : مِمَّا أَرْزَى بِهِ عِنْدَ
الْعُلَمَاءِ ، وَإِنْ كَانَ نَفَقَ بِهَا عِنْدَ الْعَامَةِ وَمِنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ .

وَهَذَا كَلَامٌ لَا تَعُوجُ بِهِ ، وَلَا نَهْرَجُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ إِلَّا عَنْ عَالَمٍ :
قَدْ أَعْمَى الْحَقْدُ قَلْبَهُ الَّذِي فِي صَدْرِهِ ، وَأَضَلَّهُ الْحَسَدُ الْمُسْتَكِنُ فِي أَطْوَاءِ نَفْسِهِ ،
وَجَعَلَتْ « الْعَصْبِيَّة » الْبَغِيضَةُ عَلَى عَيْنِهِ غِشَاوَةً : تَحْجِبُ عَنْهُ نُورَ الْحَقِّ ،
وَتَنْطِقُهُ بِغَيْرِ الصِّدْقِ .

وَلَيْسَ أَدْلَى عَلَى فُسَادِ هَذَا الرَّأْيِ ، وَانْتِكَاسِ هَذَا الْحَكْمِ ، مِنْ أَنَّ ابْنَ
قَتِيْبَةَ ظَلَّ نَافِقًا بِكِتَابِهِ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَائِرِ وَالْعُقُولِ : مِنْ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ ، وَظَلَّتْ
مَكَانَتُهُ مَلْحُوظَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ بَعِيُونَ الْإِجْلَالَ وَالْإِكْبَارَ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَجْيَالِ
وَالْأَعْصَارِ ، مِنْذُ كَانَ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا .

وَلَكِنَّهَا الْعَصْبِيَّةُ الْمُقَيِّتَةُ - قَاتَلَهَا اللَّهُ - : مَا قَارَبَتْ شَيْئًا إِلَّا أَفْسَدَتْهُ وَحَطَّتْ
مِنْ قَدْرِهِ ، وَلَا دَاخَلَتْ إِنْسَانًا إِلَّا شَانَتْهُ ، وَغَضَّتْ مِنْ ذِكْرِهِ .

٣ - قَالَ الْخَالِكُمُ : أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الضَّبِّيُّ النَّيْسَابُورِيُّ ،
الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْبَيْعِ (٣٢١ - ٤٠٥) : « كَانَ ابْنُ قَتِيْبَةَ يَتَعَاطَى اتَّقَدُّمَ فِي
(م ٤ - مَقْدِمَةُ مَشْكَلِ الْقُرْآنِ)

العلوم ، ولم يرضه أهل علم منها ! وإنما الإمام المقبول عند الكل : أبو عبيد .

وهذا كلام يقطر حقداً وعصبية وحسداً .

وقد ألهبت نار الحسد الموقدة عقل الحاكم ، واطلعت على فؤاده :
فهذى هذيان المحموم ، وهمز ابن قتيبة ولمزه بقوله : « أجمعت الأمة على أن
القتيبي كذاب » !!!

وقد نقل هذه الكلمة الجائزة الفاجرة ، الحافظ الذهبي في ميزان
الاعتدال ٧٧/٢ ؛ وعقب عليها بقوله : « هذه مجازفة قبيحة وكلام من لم
يخف الله » .

ونقلها مرة أخرى ، وقال في إثرها : « هذا بنى وتخرّص ؛ بل قال
الخطيب : هو ثقة » ؛ وعقب عليها مرة ثالثة فقال : « ما علمت أحداً اتهم
القتيبي في نقله ، مع أن الخطيب : قد وثقه ؛ وما أعلم الأمة أجمعت إلا على
كذب الدجال ومسيلة » .

٤ — وقال الحافظ السلفي أبو طاهر : أحمد بن محمد الأصهباني
الجزواني ، المتوفى سنة ٥٧٦ هـ - : « كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنة ؛
ولكن الحاكم بضده : من أجل المذهب » . وقد فمرت كلمة « المذهب »
في قول السلفي هذا ، بتفسيرين : فقال الصلاح العلاني : إن السلفي أراد
بالمذهب ما نقل عن البيهقي والدارقطني : من أن ابن قتيبة كان كرامياً يعيل
إلى التشبيه ، منحرفاً عن العترة .

ثم قال العلائي : « وهذا لا يصح عنه ، وليس في كلامه ما يدل عليه ؛ ولكنه جار على طريقة أهل الحديث : في عدم التأويل » .

وقال الحافظ ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٥٢ في لسان الميزان ٣/٨ ، ٣ : « والذي يظهر لي أن مراد السَّلَفِي بالمذهب : النَّصَب ؛ فإن في ابن قتيبة انحرافاً عن أهل البيت ، والحاكم على ضد من ذلك . وإلا : فاعتقادهما معاً - فيما يتعلق بالصفات - واحد » .

٥ — قال الدارقطني أبو الحسن : علي بن عمر بن أحمد بن مهدي (٣٠٦ — ٣٨٥) : « كان ابن قتيبة : يميل إلى التشبيه ، منحرفاً عن العروة . وكلامه يدل عليه » .

٦ — قال البيهقي أبو بكر : أحمد بن الحسين (٣٨٤ — ٤٥٨) : « كان ابن قتيبة : يرى رأى الكرامية » .

٧ — قال ابن تفرى بردى في النجوم الزاهرة ٣/٧٥ — بعد أن نقل كلام الدارقطني والبيهقي - : « وكان ابن قتيبة : خبيث اللسان ، يقع في حق كبار العلماء » .

٨ — قال ابن النديم أبو الفرج : محمد بن إسحاق :

« كان ابن قتيبة : صادقاً فيما يرويه ، عالم بالغة والنحو ؛ وكتبه مرغوب فيها »

٩ — قال مسلم بن قاسم :

« كان ابن قتيبة : لغويا كثير التأليف ، عالما بالتصنيف ، صدوقا ، من أهل السنة » .

١٠ — قال الخطيب البغدادي (٣٩٢ — ٤٦٣) في تاريخ بغداد : « هو صاحب النصائيف المشهورة ، والكتب المعروفة ؛ وكان : ثقة ، ديناً ، فاضلاً » .

وقال عنه في كتاب « المتفق والمفترق » : « شهرته ظاهرة في العلم ، ومحله من الأدب لا يحتر » .

١١ — قال نَفْطَوَيْه أبو عبد الله : إبراهيم بن محمد بن عرفة (٢٤٤ — ٣٢٣) : « كان ابن قتيبة : إذا خلا في بيته وعمل شيئاً - : جوّده ؛ وما أعلمه حكى شيئاً في اللغة ، إلا : صدق فيه » .

١٢ — قال ابن حزم أبو محمد : علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ — ٤٥٦) : « كان ابن قتيبة : ثقة في دينه وعلمه » .

١٣ — قال إمام الحرمين أبو المعالي : عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤١٩ — ٤٧٨) : « ابن قتيبة : هَجَامٌ وَلُوجٌ فيما لا يحسنه » . وقد نقل ابن حجر هذه هذه السكامة في لسان الميزان ، ثم علق عليها بقوله : « كأنه يريد كلامه في الكلام » .

١٤ — قال الحافظ الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣ — ٧٤٨) في ميزان الاعتدال ٧٧/٢ : « أبو محمد : صاحب النصائيف ، صدوق ، قليل

الرواية « ؛ وقال في تذكرة الحفاظ ١٨٧/٢ : « ابن قتيبة : من أوعية العلم ؛ لكنه قليل العمل في الحديث » .

١٥ — قال ابن الجوزي أبو الفرج : عبد الرحمن بن علي ، المتوفى سنة ٥٩٧ ، عنه في المنتظم ١٠٢/٥ : « وكان : عالماً ثقة دينا فاضلاً ، وله التصانيف المشهورة » .

١٦ — قال الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر ، المتوفى سنة ٧٧٤ ، في البداية والنهاية ٤٨/١١ ، ٥٧ : « ابن قتيبة النحوي اللغوي : صاحب المصنفات الكثيرة ، البديعة المفيدة ، المحتوبة على علوم حجة نافعة ؛ أحد العلماء والأدباء ، والحفاظ الأذكياء ؛ كان : ثقة نبيلاً » .

١٧ — قال أبو بكر بن دريد (٢٢٣ — ٣٢١) وقد سئل عن ابن قتيبة ، فقال : « ربوة بين جبلين » ، يريد : أن ذكره قد خُل بنباهة ثعلب والمبرد ، كما قال الجرجاني .

١٨ — أما ابن تيمية تقي الدين : أحمد بن عبد الحلیم ، المتوفى سنة ٧٢٨ فقد ذكر في تفسير سورة الإخلاص ص ١٢١ : أن الإمام أحمد بن حنبل يذهب الى أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح لامتثابه . ثم عقب على ذلك بقوله : « وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة ، منهم : ابن قتيبة ، وأبو سليمان الدمشقي وغيرها . وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق بن راهويه ، والمختصرين لمذاهب السنة المشهورة ، وله في ذلك مصنفات متعددة ، قال فيه صاحب « التحديث بمناب أهل الحديث » :

وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء الفضلاء ، أجودهم تصنيفاً ، وأحسنهم ترصيفاً ؛ له زهاء ثلاثمائة مصنف . وكان يميل إلى مذهب أحمد وإسحاق ؛ وكان معاصراً لإبراهيم الحزبي ، ومحمد بن نصر المروزي ؛ وكان أهل المغرب : يعظمونه ، ويقولون : من استجاز الواقعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة ! ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه . ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ؛ فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

١٩ — وقال ابن خلكان أبو العباس : أحمد بن محمد (٦٠٨ — ٦٨١)
عنه في وفيات الأعيان ٢ / ٢٤٦ :

« كان : فاضلاً ثقة ؛ وتصانيفه كلها مفيدة ... » .

* * *

تلك هي آراء العلماء الأقدمين في ابن قتيبة : أوردناها كما رأيناها ؛ ويعنيها هنا : أن نتبين وجه الحق فيما قُرفَ به من تهم ؛ وعُضِّ به : من مثالب .

وسبيلنا إلى ذلك : أن نوازن بين ما قالوه عنه ، وما قاله غيرهم ، وما قاله في كتبه — موازنة دقيقة ، قوامها العدل الخالص من شوائب الهوى ، والإنصاف الباسل الذي لا يبالى : على من وجبت الحجة ، وحمّت كلمة الخطأ والضلال .

فإن كان ما قالوه حقاً : أيدناه بالمثل والشواهد التي تجعل القلوب إليه صاغية ، والعقول جانحة جنوحاً لا خيار فيه .

وإن كان ما ذهبوا إليه مَينًا : أبدينا عواره ، وهتكنا أستاذنا ؛ بما
نورده : من الأدلة الناصعة ، والبراهين القاطعة ؛ ثم قدّمنا إليهم ، فكشفنا
عن أسباب ضعفهم عليه ، وكراهيتهم له ؛ وبيننا أسرار اختلافهم عليه ،
ومنازعة وقيعتهم فيه .

* * *

لقد اتهمه «الحاكم» : بأنه كذاب قد أجمعت الأمة على كذبه ؛ ولم يؤيد
دعواه بمثال واحد بل : لجأ إلى التهويل والتهويش بإجماع الأمة وتلك
أكذوبة بقاء : لم تجد مصداقاً أو مظاهراً ولا تستحق أن نعرض لها بالتوهين
وحسبها نقد الذهبي لها ؛ وحسبنا إجماع الأزهري ، والخطيب البغدادي ،
ومسلم بن قاسم ، والحافظ السافي ، وابن النديم ، ونفطويه ، وابن حزم ،
وابن كثير ، وابن الجوزي ، وابن خلكان - حسبنا إجماع هؤلاء الأعلام :
على أن ابن قتيبة كان ثقة في قوله ، صادقاً في روايته ، مُصَدِّقاً .

وقد اتهمه الدارقطني : بأنه كان يميل إلى التشبيه ، منحرفاً عن العترة .

واتهمه البيهقي : بأنه كان كرامياً .

وليس بين هذين الاتهامين من فرق في المعنى : فكلهما ينسب إلى
التشبيه ، والانحراف عن آل البيت رضوان الله عليهم ؛ فإن الكرامية (الذين
تابعوا محمد بن كرام على رأيه) كانوا يذهبون إلى التجسيم والتشبيه ؛
ويتهمون علياً في صبره على ما جرى مع عثمان ، وسكوته عنه ويرون

تصويب معاوية فيما استبد به من الأحكام الشرعية : قتالا على طلب قتلة
عثمان ، واستقلالا ببیت المال..

فهل كان ابن قتيبة يذهب حقاً إلى التشبيه ؟ وهل كان منحرفاً عن آل
البيت ؟ أم أن هذا وذاك قد افترى عليه، ورمى به بغير الحق ؛ كما رمى بالكذب
زوراً وبُهتاناً ؟ .

أما نسبة ابن قتيبة إلى التشبيه والتجسيم : فهي من منكر القول وزوره .

وكيف يصح في الأذهان أن يكون ابن قتيبة من المشبهة ؛ وهو مؤلف
كتاب : « الاختلاف في اللفظ ، والرد على الجهمية والمشبهة » ، ! .

كيف يكون منهم : وهو القائل في كتابه هذا ص ٢٩ : « فنحن نقول
كما قال الله ، وكما قال رسوله ؛ ولا نتجاهل ؛ ولا يحملنا ما نحن فيه : من نفى
التشبيه ؛ على أن ننسك ما وصف به نفسه ؛ ولكننا لا نقول : كيف البيان ؟
وإن سئلتنا : نقتصر على جملة ما قال ، ونمسك عما لم يقل » ؟ ! .

كيف يكون منهم : وهو الذي يقول في ص ٣٢ : « فنحن نؤمن بالنفخ
وبالروح ؛ ولا نقول : كيف ذلك ؟ لأن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله
إلى حيث انتهى في صفته ، أو حيث انتهى رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولا نزيل
اللفظ عما تعرفه العرب وتضعه عليه ؛ ونمسك عما سوى ذلك » ؟ ! .

كيف يكون منهم : وهو الذي يقول في ص ٤٥ : « ... ولما رأى قوم
من الناس إغراط هؤلاء في النفي : عارضوهم بالإغراط في التمثيل ؛ فقالوا :

بالتشبيه المحض ، وبالأقطار والحدود ... وكلا الفريقين غلط ، وقد جعل الله التوسط : منزلة العدل ؛ ونهى عن الغلو فيما دون صفاته : من أمر ديننا ؛ فضلا عن صفاته ، ووضع عنا أن نفكر فيه : كيف كان ؟ وكيف قدر ؟ وكيف خلق ؟ ولم يكلفنا ما لم يجعله في تركيبنا ووسعنا . وعدل القول في هذه الأخبار : أن نؤمن بما صح منها بنقل الثقات لها ، فنؤمن : بالرؤية والتجلى ، وأنه يعجب ، وينزل إلى السماء ، وأنه على العرش استوى ، وبالنفس واليدين من غير أن نقول في ذلك بكيفية أو بحد أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت . فنرجو : أن نكون في ذلك القول والعقد ، على سبيل النجاة غدا ، إن شاء الله تعالى « ؟ ! » .

أيقول هذا النول السوى ، من يقول بالتشبيه والتجسيم ؟ : إن ابن قتيبة قد نهج في كلامه هذا ، نهج النمط الأوسط من السلف الصالح : وسلك سبيلهم متبعاً غير مبتدع .

قال أبو الفتح : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٧٩ — ٤٤٨) في كتابه : « الملل والنحل » — : « وأما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولم يهذبوا للتشبيه ، فمنهم : أحمد بن حنبل ، وسفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، إذ قال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

فهل بين قول مالك بن أنس وبين قول ابن قتيبة ، فرق ؟ : كلا ،

ولكن البيهقي والدارقطني قد كذبا عليه حين رمياه بالتشبيه ، كما كذب
الحاكم في رمية بالكذب .

* * *

وأما القول : بأن ابن قتيبة كان منحرفا عن آل البيت ؛ فمحض

افتراء عليه ، كسابقه .

وقد لجأ قارفوه بهذه التهمة الخطيرة ، إلى إلقاء الحكم إلقاء : دون
تثبيته في النفوس بالمثل ؛ شأنهم في كل ما رموه به : من تهمة ؛ وألصقوا به :
من وصمات .

ولكن من دفع هذه التهمة عنه هين آين : لا يحوج إلى إعمال فكر ،
أو إجابة زويدة ، أو كد خاطر ؛ ولكنه يحتاج إلى قليل : من الأناة ؛
في قراءة قوله الذي أفصح به عن رأيه في على كرم الله وجهه ، وأعرب به
عن تقديره لمكارمه ومفاخره ، ومكانه السامي من رسول الله ودين الله ،
ومكانته من الفضل والبأس ، والعلم والدين جميعاً .

قال ابن قتيبة في كتاب « الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية
والمشبهة » ص ٤٧ : « ... وقد رأيت هؤلاء أيضاً - حين رأوا غلو الرافضة :
في حب على ، وتقديمه على من قدمه رسول الله « صلى الله عليه وسلم »
وصحابته عليه ؛ وادعائهم له شركاة النبي صلى الله عليه وسلم : في نبوته :
وعلم الغيب للأئمة : من ولده ؛ وتلك الأقاويل والأمور السرية : التي جمعت

إلى الكذب والكفر إفراط الجهل والغباوة ؛ ورأوا شتمهم خيار السلف ،
وبغضهم وتبرؤهم منهم — : قابلوا ذلك أيضا ، بالقول : في تأخير عليّ كرم الله
وجهه ، وبخسه حقّه ؛ ولحنوا في القول ؛ وإن لم يصرحوا إلى ظلمه ، واعتدوا
عليه : بسفك الدماء بغير حق ، ونسبوه إلى الملالة على قتل عثمان رضى الله
عنه ؛ وأخرجوه بجهلهم من أئمة الهدى إلى جملة أئمة الفتن ، ولم يوجبوا
له اسم الخلافة : لاختلاف الناس عليه ؛ وأوجبوا ليزيد بن معاوية : لإجماع
الناس عليه ؛ واتهموا من ذكره بخير . وتحامى كثير من الحدّثين : أن
يحدّثوا بفضائله كرم الله وجهه أو يُظهروا ما يجب له : وكلّ تلك الأحاديث
لها مخارج صحاح . وجعلوا ابنه الحسين عليه السلام خارجيّاً ، شاكاً لعصا
لعصا المسلمين ، حلال الدّم ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من خرج
على أمّتي : وهم جميع ؛ فاقتلوه كائنا من كان » . وسروا بينه — : في الفضل —
وبين أهل الشورى : لأن عمر لو ثبتّ له فضله لتقدّمه عليهم ، ولم يعمل
الأمر شورى بينهم . وأهملوا من ذكره ، أو روى حدّثنا من فضائله ؛
حتى تحامى كثير من الحدّثين . أن يتحدّثوا بها . وعُنوا بجمع فضائل عمرو
بن العاص ، ومعاوية : كأنهم لا يريدونها بذلك ، وإنما يريدونه . فإن قال
قائل . « أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليّ ، وأبو سبيطه : الحسن
والحسين ، وأصحاب الكساء : عليّ وفاطمة والحسن والحسين » — تمعّرت
الوجوه ، وتكثرّ العيون ، وطرّرت حسائك الصدور . وإن ذكرّا ذا كِرٍّ
قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من كنت مولاه فعليّ موه » ؛ و : « أنت
منى بمنزلة هارون من موسى » ؛ وأشباه هذا — : التمسوا تلك الأحاديث

الخارج لينتصوه ويخسوه حتمه: بغضاً منهم للرافضة وإلزاماً لعلّ عليه السلام
— بسببهم — مالا يلزمه . وهذا هو الجهل بعينه .

والسلامة لك : أن لا تهلك بمحبته ، ولا تهلك ببغضته ؛ وأن لا تحمل
عليه ضعفاً : بجناية غيره . فإن أنت فعلت : فأنت جاهل مُفْرِط في بغضه .

وأن تعرف له مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالتربية والأخوة
والصبر ، والصبر في مجاهدة أعدائه ، وبذل مُهَجَّتِهِ في الحروب بين يديه ،
مع مكانه : في العلم والدين ، والبأس والفضل — من غير أن تتجاوز به الموضع
الذي وضعه به خيار السلف: لِمَا تسمعه من كثير : من فضائله؛ فهم كانوا أعلم به
وبغيره ، ولأن ما أجمعوا عليه هو : للعيان الذي لا يشك فيه . والأحاديثُ
المنقولة قد يدخلها تحريف وشوّب .

ولو كان إكرامك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الذي دعاك إلى
محبة من نازع علياً وحاربه ولعنّه — : إذ سحّب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وخدمه ، وكنت قد سلكت في ذلك سبيل المستسلم — : لَأَنْتَ بذلك في
علّ عليه السلام ، أولى : لسابقته ، وفضله ، وخاصّيته ، وقرابته ؛ والدناوة
التي جعلها الله بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم : عند المباهلة ؛ حين
قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنبِئْنَا بِبَنَاءِنَا وَأُنْبِئْكُم ﴾ : فدعا حسينا وحسينا ؛
﴿ ونساءنا ونساءكم ﴾ : فدعا فاطمة عليها السلام ؛ ﴿ وأنفسنا وأنفسكم ﴾ :
فدعا علياً عليه السلام . ومن أراد الله تبصيره : بصّره ؛ ومن أراد به غير
ذلك : حيره .

هذا كلام ابن قتيبة الذى صور فيه — فى قوة ووضوح — مشاعره نحو
على وآله ؛ وعبر عما يجنبه فؤاده : من محبتهم وإجلالهم ، وحسن الرأى
والاعتقاد فيهم .

فهل يصدر هذا الكلام العذب عن يحتويهم ، ويسىء الظن بهم ؟ وهل
يدخل فى نطاق المعقول : أن يقوله من يتهم بالانحراف عنهم ؟

ولكن القوم أصموا آذانهم عنه ، وأطبقوا أعينهم دونه ، واستغفوا
ثياب العصبية الصفيقة ، ثم ذهبوا : يتناقلون رميه ببعض آل البيت ، والميل
عن مودتهم ، لموجدة يجدون مسما فى نفوسهم عليه .

ولعل من أسباب هذه الموجدة ، تلك الرواية التى رواها عن الشعبي
فى « تأويل مشكل القرآن » ، حيث يقول فى ص ١٨١ : « وكان أصحاب
رسول الله صلى الله عليه ورضى عنهم — وهم مصابيح الأرض ، وقادة
الأنام ، ومُنْتَهَى العلم . — إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع
والبعض والشطر من القرآن ، إلا نقرأ منهم : وفقهم الله لجمعه ، وسهل عليهم
حفظه . قال الشعبي : توفى أبو بكر ، وعمر ، وعلى — رحمهم الله — ولم
يجمعوا القرآن . وقال : لم يختمه أحد من الخلفاء غير عثمان . ورؤى عن
شريك ، عن إسماعيل بن أبى خالد : أنه قال : سمعت الشعبي تحلف بالله عز
وجل : لقد دخل على حفرتة ولما حفظ القرآن . »

ولقد أثارت هذه الرواية ثائرة أبى الحسين : أحمد بن فارس ، المتوفى
سنة ٣٩٥ ، فقال فى كتاب الصحاح ص ١٧٠ : « وابن قتيبة يطلق إطلاقا

منكرة ، و يروى أشياء شنة ؛ كاذى رواه عن الشعبي : أن أبا بكر وعمر
وعليا توفوا ، ولم يجمعوا القرآن ؛ وأن عليا دخل حفرة ، وما حفظ القرآن
وهذا كلام شنع جداً ... » .

* * *

أما قول إمام الحرمين : « إن ابن قتيبة هجّام ولوج فيما لا يحسنه » ؛
فإنه يريد : كلامه فى الكلام ، كما قال ابن حجر . ولابن قتيبة كلام عن
هذا العلم ، لا يروق فى نظر رجل انغمس فيه من فرقه إلى قدمه ، وقضى حياته
فى تحقيق مسائله ؛ كإمام الحرمين . فقد قال فى كتاب « الاختلاف فى اللفظ ،
والرد على الجهمية والمشبّهة » ص ١٢ — أثناء رده على ما تأولته الجهمية — :
« ولم أعهد فى أكثر الرد عليهم طريق اللغة ؛ فأما الكلام فليس من
شأننا ؛ ولا أرى أكثر من هلك إلا به . وبجمل الدين على ما يوجب
القياس ... » .

وقال فى كتاب : « تأويل مختلف الحديث » ص ١٥ : « وقد تدبرت
مقالة أهل الكلام ؛ فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويميّبون الناس
بما يأتون ، ويبصرون القذى فى عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجذاع ،
ويتهمون غيرهم فى النقل ولا يتهمون آراءهم فى التأويل . ومعانى الكتاب
والحديث ، وما أودعاه — من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة — لا يدرك
بالطرفة والتولّد ، والمعرض والجوهر ، والكيفية والكميّة والأيدىّة . ولو
ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما وضع لهم المنهج ، واتسع لهم الخرج ،

ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة ، وحب الأنباع ، واعتقاد الإخوان بالمقالات ؛ والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضا ... » . وقال في ص ٧٤ : « وكنت في عنفوان الشباب ، وتطلب الآداب ، أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم ، فرمى حضرت بعض مجالسهم — وأنا مغتر بهم ، طامع أن أضدّر عنه بفائدة ، أو كلمة تدل على خير ، أو تهدي لرشد . — فأرى من جرأتهم على الله ، تبارك وتعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظام — : لطرذ القياس ، أو لثلا يقع انقطاع — ما أرجع معه خاسراً نادماً » .

* * *

وأما قول ابن تغرى بردى : « كان ابن قتيبة خبيث اللسان ، يقع في حق كبار العلماء ؛ فغير صحيح أيضاً . »

والذى دفعه إلى هذا القول أنه من الأحناف أصحاب رأى والقياس . وقد عرض لهم ابن قتيبة بالنقد ، في كتاب « تأويل مختلف الحديث » وقال في ص ٦٢ : ثم نصير إلى أصحاب الرأى ، فنجدهم أيضاً يختلفون ويقيسون ، ثم بدعّون القياس ويستحسنون ؛ ويقولون بالشئ ويحكمون به ثم يرجعون » .

ثم ضرب لذلك أمثلة خطيرة رجع فيها أبو حنيفة عن رأيه ؛ رواها عن أستاذه إسحاق ابن راهويه ، الذى قال عنه في ص ٦٥ : « ولم أر أحداً ألهج بذكر أصحاب الرأى وتنقصهم ، والبعث على قبيح أقوالهم ، والتنبيه

عليها — من إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، المعروف بابن راهويه . وكان يقول : نبذوا كتاب الله تعالى وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولزموا القياس . »

وعدد ابن قتيبة من ذلك ، مسائل كثيرة رواها عنه ؛ كما روى مسائل أخرى تدل — كما يقول ابن راهويه — : « على تحكيم أبي حنيفة في الدين ، ومخالفة كتاب الله » . ثم قال ابن قتيبة في ص ٧٠ : « وكيف يطرد لك القياس في فروع لا تنفق أصولها والفرع تابع للأصل ؟ ! وكيف يقع في القياس : أن يقطع سارق عشرة دراهم ويمسك عن غاصب مائة ألف درهم ؛ ويجلد قاذف الحر ، ويعفى عن قاذف العبد العفيف ؛ وتُستبرأ أرحام الإماء بحبضة ، ورحم الحرة بثلاث حيضات ؛ ويحصن الرجل بالمعجوز الشوهاء السوداء ، ولا يحصن بمائة أمة حسناء ؛ ويُوجب على الحائض قضاء الصوم ، ولا يوجب عليها قضاء الصلاة ؛ ويجلد في القذف بالزنا أكثر من الجلد في القذف بالكفر ؛ ويقطع في القتل بشهادين ، ولا يقطع في الزنا بأقل من أربعة ! »

فأنت ترى : أن ابن قتيبة لم يكن خبيث اللسان في حديثه عن أهل الرأي ، وإنما عرض لهم بالنقد العلني في بعض ما ذنبوا إليه ، وروى عن أساتذته ما تدعو ضرورة البحث إلى روايته ، وإذا تحدث عن رأيه : تحدث بأسلوب مهذب مؤدب ، لا يصح وصفه بالخبيث ، ولا نفعته بالوقية .

وقد خدعت كلمة ابن تفرى بردى هذه ، الأستاذ محمد كرد علي ،
وجعلته يقول مقدمته لكتاب الاشرية ص ٤ :

« اشتد ابن قتيبة على مخالفيه ولا سيما المعتزلة منهم وفي كتابه تأويل
مختلف الحديث : طعن مبرّح في الجاحظ ، قال فيه : إنه أكذب الأمة ،
وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل ، فتجلى حسده تجلياً ظاهراً .

هجن ابن قتيبة الجاحظ وكفره ، ورماه بأعظم كبيرة وهي الكذب ؛
وسجل عليه أنه أكذب واحد في الأمة ؛ لأنه كتب في أشياء تنفع في تربية
العقول في الدنيا ، كما كتب كل ما ينفع في الدين ؛ وابتدع أدباً يسلى ويعلم .
فهل من العدل أن يرمى بوضع الحديث وتشدده وتشدد أهل مذهبه :-
في تحرى السليم من السقيم في الحديث . - لا يحتاج إلى دليل ؟ ! » .

إن ابن قتيبة لم يظلم الجاحظ ، ولم يهجنه حسداً من عند نفسه ؛ ولم
يتهمه بالكذب ، لما زعمه الأستاذ ، بل أنصفه ، وقال فيه ماله ، كاملاً غير
منقوص ؛ ونقده في بعض رأيه بما لا يسع المسلم الحقيقي إلا نقده وردّه على
قائله : كائناً من كان .

وإليك نص كلام ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث ، قال
في ص ٨١ : « ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين ،
وأحسنهم للحجة استنارة ، وأشدّهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير
العظيم حتى يصغر ؛ ويبلغ به الاقتدار أن يعمل الشيء ونقيضه ؛ ونجده
(م • - مقدمة مشكل القرآن)

يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث
وشراب النبتذ .

ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ؛ كذكره كبد
الحوت وقرن الشيطان ؛ وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسودّه
المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ويذكر الصحيفة
التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة . وأشياء
من أحاديث أهل الكتاب ، في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمّه
في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا مما سمعته فيما
بعد ، إن شاء الله . وهو - مع هذا - من أكذب الأمة ، وأضعفهم لحديث ،
وأنصرهم لباطل . »

هذا هو رأى ابن قتيبة في الجاحظ ، وهو يلقف ما يقول عنه الأستاذ
محمد كرد علي .

ولست أدري : كيف استباح لنفسه الطعن في ابن قتيبة بذلك الأسلوب
التهكمي مع أنه لم يستطع أن ينقد مما قاله حرفاً واحداً ؟ !

أتراه كان ينتظر منه تقرّظ الجاحظ لاستهزائه بحديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟ ! .

ومن دلائل وضع الجاحظ للأحاديث ، ما حدث به أبو العيّن بعد
توبته عن وضعها ؛ قال أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك ، وأدخلناه على

الشيوخ ببغداد ، قبلوه إلا ابن أبي شيبه العلوى ، فإنه قال : لا يشبه هذا الحديث أوله ، وأبى أن يقبله .

وكذلك وضع الجاحظ في كلام العرب ما ليس منه ، ونسب ذلك إلى أئمة اللغة ؛ وقد سجل عليه ذلك أبو العباس : ثعلب ، إذ يقول : « اعزبوا عن ذكر الجاحظ : فإنه غير ثقة ولا مأمون » .

ولامراء في أن الجاحظ قد صنع كثيراً من نصوص الأدب ؛ وعزاها إلى غيره من العرب تارة ، والأعاجم أخرى .

وهذه كلها دلائل تدل على أن ابن قتيبة لم يصف أستاذه الجاحظ إلا بما عرفه من خلاله ونوازه ؛ ولم يحاول : « أن يسحب عليه ذيل التسيان » ؛ كما يقول الأستاذ محمد كرد على رحمه الله .

وأعجب مما سبق ، قول الأستاذ محمد كرد على عن ابن قتيبة :

« ورمى أيضاً أبا الهذيل العلاف بما ليس فيه ؛ ووصفه بأنه كذاب أفك ، وطعن فيه أشنع طعن .

وكذلك كان حظ ثمامة بن الأشترس منه - وهما من الأئمة - ورمى هذا برقة الدين ، وتنقص الإسلام ، والاستهزاء به .

وطعن في النظام أيضاً وهو الذى رد على الملحدين والدهريين ، شطراً كبيراً من عمره .

ولست أدري : من أين علم الأستاذ أن ابن قتيبة افترى على أبي الهذيل الكذب ووصفه بما ليس فيه .

هل قرأت كتب « التوحيد » فألقى فيها ما يكذبه .

أم هل قرأت كتب « التراجم » فوجد فيها تسكأة له في تكذيبه ؟

إنه لم يقرأ شيئاً من هذه ولا تلك ! وآية ذلك أن وصف ابن قتيبة له بالبخل ورقة الدين ؛ مسطور فيها جميعاً .

وقد كرر الجاحظ في كتبه وصفه له بالبخل ، وقال عنه : « إنه كان أبخل الناس » . ووصفه كذلك بأوصاف كثيرة في طليعتها النفاق !

واتفق المترجمون له والباحثون في مذهب السكلامى علي أن دينه كان من بيت العنكبوت :

قال الخطيب البغدادي في ترجمته ٣/٣٦٦ : « وكان أبو الهذيل خبيث القول ، فارق إجماع المسلمين ، ورد نص كتاب الله إذ زعم أن أهل الجنة تنقطع حرركاتهم فيها حتى لا ينطقوا بكلمة ولا يتكلموا بكلمة ؛ فلزمه القول بانهقطاع نعيم الجنة عنهم ، والله يقول : ﴿ أَكُلُّهُمْ دَائِمٌ ﴾ . وجحد صفات الله التي وصف بها نفسه ، وزعم أن علم الله هو الله ، وقدرة الله هي الله ! فجعل الله علماً وقدرة ، تعالى الله عما وصفه به علواً كبيراً » .

ومذهب أبي الهذيل - : في انتهاء حرركات أهل الجنة والنار . - قريب من مذهب جهنم بن صفوان الذي زعم أن الجنة والنار تفنيان وتبيدان ،

ويبقى من فيهما ، حتى لا يبقى إلا الله وحده ، كما كان وحده لا شيء معه ، بل إن مذهبه شر من مذهب جهنم - كما يقول البغدادي في « الفرق بين الفرق » - : « لأن جهنم - وإن قال بفناء الجنة والنار - فقد قال : إن الله قادر بعد فناءهما ، أن يخلق غيرهما » ؛ وأبو الهذيل زعم أن ربه لا يقدر بعد انتهاء الحركات - : على تحريك ساكن ، أو إحياء ميت ، أو إحداث شيء » . ويقول البغدادي عنه أيضاً في ص ٧٢ : « وفضائحه تترى ، تكفره فيها سائر فرق الأمة : من أصحابه في الاعتزال ، ومن غيرهم » .

أفبعد ذلك ، يصح اتهام ابن قتيبة بأنه وصف أبا الهذيل بما ليس فيه ، طعنًا بغير الحق وتشنيعًا ؟ !

وكما كان ابن قتيبة منصفًا صادقًا في حكمه على أبي الهذيل العلاف - فإنه كان كذلك صادقًا منصفًا في حكمه على « ثمامة بن الأشرس » بأنه كان يتنقص الإسلام ورسول الإسلام ، ويحتمد عليهما حقًا غليظًا منكراً .

ولا أريد أن أنقل من حصائد لسانه ، ونزوات بنانه ؛ في ذلك شيئًا وحسبي أن أورد بعض ما قاله البغدادي عنه في ص ١٠٢ ، ٢٠٤ : « وكان زعيم القدرية في زمان المأمون والمعتمد والوثق ؛ وانفرد عن سائر أسلافه المعزلة ، ببدعتين أكفرته الأمة كلها فيهما » .

وأما طعن ابن قتيبة في « النظام » فشاهده من الصدق والأمانة ، قول البغدادي في الفرق بين الفرق ص ٨٠ « وجميع فرق الأمة - : من فريق

الرأى والحديث ، مع الخوارج والشيعة والنَّجَّارِيَّة ، وأكثر المعتزلة . —
متفقون على تكفير النظام » .

ويتضح من ذلك كله : أن ابن قتيبة لم يقال « في طعنه بما لم يناسب عظمة
علمه وأخلاقه » ؛ ويدين أنه إنما اتهم في النهج الذي رسمه لنفسه ؛ وهو أن
يُضْحِرَ بالحق فيما ارتأى ؛ لا ينجح لظلم ، ولا يتبع الهوى .

* * *

وكان من أشد العلماء عداوة لابن قتيبة : أبو بكر: محمد بن القاسم الأنباري

(٢٧١ — ٣٢٨) ، تلميذ أبي العباس : ثعلب ؛ ورائد تلك الطائفة التي رمته
بالكذب ، وعداوة العترة ، والذهاب إلى التشبيه والتجسيم . فقد كان ابن
الأنباري أستاذاً للدارقطني ؛ وكان الدارقطني أستاذاً للحاكم ؛ وكان
الحاكم أستاذاً للبيهقي .

وقد نسبته إلى الغفلة والغباوة ، وقلة المعرفة ؛ وردّ عليه قريباً من ربع
مألفه من مشكل القرآن ؛ كما حدث الأزهرى . وعمل « رسالة المشكل »
حتى قصرها على نقده ونقد أسقاده أبي حاتم السجستاني ، وأملى كتاب
« المشكل » في سنين كثيرة ، ولم يبلغ فيه إلا إلى سورة طه .

ولم يصل إلينا من كتبه التي تناولها فيها بالنقد ، غير كتاب : « الأضداد » ،
الذي نقد فيه بعض ما ذهب إليه في كتابيه : « إصلاح الغلط » ، و « تأويل
مشكل القرآن » .

وقد سلك في نقده له غير سبيل الحق ، وسجل عليه العلماء للذين قرأوا
كتبه — : أنه كان يردّ عليه أقواله كلها ، ويتعسف في طعنه ، ويحتج لردّه
بأوابد اللغة وشواذّها .

قال الشريف المرتضى (٣٥٥ — ٤٣٦) في كتابه : « غرر الفوائد
ودرر القلائد » المشهور بالأمالى ١٣/٢ : « وجدت أبا بكر : محمد بن القاسم
الأنباري ، يطعن على جواب من أجاب في قوله تعالى : ﴿ وبلغت القلوب
الحناجر ﴾ ، بأن معناه : كادت تبلغ الحناجر . ويقول : كاد لا تضمر ، ولا بد
من أن يكون منطوقا بها ، ولو جاز ضميرها لجاز : « قام عبد الله » ، بمعنى :
كاد عبد الله يقوم ، فيكون تأويل « قام عبد الله » : لم يقوم عبد الله ، لأن
معنى « كاد عبد الله يقوم » : لم يقوم .

وهذا الذي ذكره ابن الأنباري غير صحيح . ونظن أن الذي حمّله على
الطعن في هذا الوجه ، حكايته له عن ابن قتيبة ؛ لأن من شأنه أن يرد كل
ما يأتي به ابن قتيبة ، وإن تعسف في الطعن عليه !!!

والذي استبعده غير بعيد ؛ لأن « كاد » قد تضمر في مواضع يقتضيها
بعض الكلام وإن لم تكن في صريحه . ألا ترى : أنهم يقولون : أوردت
على فلان : — من العتاب والتوبيخ والتقريع . — مامات عنده ، وخرجت
نفسه ، ولما رأى فلان فلاناً لم يبق فيه روح ، وما أشبه ذلك ومعنى جميع
ما ذكرناه : المقاربة ، ولا بد من إضمار « كاد » فيه ... وإذا كان الأمر
على ما ذكرناه ، لم يمتنع أن يقال : قام فلان ، بمعنى : كاد يقوم ، إذا دلت

الحال على ذلك ، كما يقال : مات ، بمعنى : كاد يموت .

فأما قوله : « فيكون تأويل قوله : قام عبد الله ؛ لم يقم عبد الله » خطأ ؛ لأنه ليس معنى كاد يقوم : أنه لم يقم ؛ كما ظن ؛ بل معناه : أنه قارب القيام ، ودنا منه . فمن قال : قام عبد الله ، وأراد كاد يقوم ، فقد أفاد ما لا يفده : لم يقم . »

ومعلوم : أن هوى المرتضى ليس مع ابن قتيبة ؛ فهو لا يكاد يصرح باسمه إلا في معرض النقد والتخطئة . ولكن غلو ابن الأنباري في تحامله على ابن قتيبة ، دفعه إلى أن يقول ذلك ، وأن يقول تعميماً على ندد آخر : « إن ما ذكره ابن الأنباري لا يقدر في كلام ابن قتيبة . »

وقال ابن تيمية في تفسير سورة الإخلاص ص ١٣٣ : « وأما اللغويون الذين يقولون : إن الراسخين لا يعلمون معنى التشابه ؛ فهم متناقضون في ذلك ؛ فإن هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء من القرآن ، ويتوسعون في القول في ذلك ؛ حتى ما من أحد إلا وقد قال في ذلك أقولاً لم يسبق إليها ، وهي خطأ . وابن الأنباري الذي بالغ في نهرة ذلك القول ، هو من أكثر الناس كلاماً في معاني الآي المتشابهات ، يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ؛ ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة ، وهو قصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة . وليس هو بأعلم بمعاني القرآن والحديث ، وأتبع للسنة من ابن قتيبة ، ولا أفقه في ذلك ؛ وإن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة . لكن باب فقه النصوص ؛ غير باب حفظ ألفاظ اللغة . »

وترجع عداوة ابن الأنبارى لابن قتيبة إلى أسباب ثلاثة ، تجمعها كلمة واحدة ، وهى « التعصب » .

أولها : أن ابن الأنبارى من نخاة الكوفة المتعصبين ، وابن قتيبة من البصريين ، ولكنه لم يكن متعصبا لمذهبه ، بل مزج بين المذهبين ؛ فتعصب عليه ابن الأنبارى ؛ كما تعصب على معاصره أبى الحسن بن كيسان الكوفى المتوفى سنة ٢٩٦ لأنه مزج بين النجويين ، وكان ميله إلى مذهب البصريين أكثر . قال أبو على الفالى ، تلميذ ابن الأنبارى : « كان أبو بكر بن الأنبارى شديد التعصب على ابن كيسان ، والتقص له ؛ وكان يقول : خاط فلم يضبط مذهب الكوفيين ، ولا مذهب البصريين . وكان يفضل الزجاج عليه » ؛ مع أن أبابكر بن مجاهد يقول عنه : أبو الحسن بن كيسان أنحى من الشيخين ؛ يعنى : ثعلبا والمبرد .

والسبب الثانى : فى تنقص ابن الأنبارى لابن قتيبة : تلك الرواية التى رواها فى تأويل مشكل القرآن ، عن الشعبى : من أن عليا دخل حفزته وما حفظ القرآن . فقد أحفظته عليه ، كما أحفظت ابن فارس ، والشريف المرتضى .

والسبب الثالث : تأليف ابن قتيبة لكتاب « إصلاح الغلط » . وقد ذكر هذا السبب ابن تيمية ، فى تفسير سورة الإخلاص ص ١٣٣ ؛ حيث يقول : وقد نتم ابن الأنبارى وغيره ، على ابن قتيبة كونه رد على أبى عبيد

أشياء من تفسير غريب الحديث . وابن قتيبة قد اعتذر من ذلك ، وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم . وهو وأمثاله يصيبون تارة ، ويخطئون أخرى .

إن ابن قتيبة لم يخطئ في فكرة نقده لأبي عبيد ، كما لم يخطئ في فكرة مزجه بين النحويين ؛ فما كان أبو عبيد — على جلاله قدره وسمو مكانته — إلا إنسانا يخطئ ويصيب ، ويؤخذ من كلامه ويرد ؛ وقد أخطأ وعرف معاصروه وغيرهم خطأه ، كإسحاق الموصلي ، وأبي سعيد الضيرير وأبي سليمان الخطابي . وما خصّ مذهب الكوفيين بالصواب في كل مسألة من مسائله . وما كان نقد ابن قتيبة لأبي عبيد ، ولا مزجه بين المذهبيين — إلا مظهراً من مظاهر التحرر العقلي الذي فطر عليه ، وجعله دائماً يثني على كل من أتى بحسن من قول أو فعل ، ويرد الردى منهما على صاحبه ، غير ناظر إلى شرفه ولا تقدمه . وقد شرح ذلك في غير موضع من كتبه ، فقال في مقدمته لكتاب « الشعراء » ص ٦ : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له ، سبيل من قلد أو استحسّن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ؛ بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظّه ، ووفّرت عليه حقه ؛ فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيّره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله .

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثّر هذا المحدث وحسن حتى لقد

همت بروايته . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره . وكذلك قال في مقدمة عيون الأخبار : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخير اللفظ ، لطيف المعنى ، لم يُزِرْ به عندنا تأخر قائله ، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ؛ فكل قديم حديث في عصره ؛ ومن شأن عوام الناس رفع المعلوم ، ووضع الموجود ، ورفض المبدول ، وحب الممنوع ، وتعظيم المتقدم ، وغفران زلته ، وبخس المتأخر والتجني عليه . والعامل منهم بنظر بعين العدل لابعين الرضا ، ويرن الأمور بالقسطاس المستقيم » .

وأبلغ من ذلك كله — : في الدلالة على تجرر عقله ، وانطلاقه من إसार التقليد والتزم — : روايته لأدب الجون ، ودفاعه عن ذلك ، حيث يقول : « وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة ، وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما . فإذا مرَّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه ، أو تعجب منه ، أو تضجرك له — : فاعرف المذهب فيه وما أردنا به . واعلم أنك إن كنت مستغنيا بنفسك فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه ، محتاج إليه . وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيها لك على ظاهر محبتك . ولو وقع فيه توقي المتزمتين لذهب شطربها ، وشطر ماؤه ؛ ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مرَّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة — : فلا يحملك الخشوع أو التواضع

على أن تصعّر خذك ، وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المآثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب ... ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجّيراك على كل حال ، وديدتك في كل مقال ، بل الترخّص مني فيه عند حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها تنقصها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض . وأحببت أن نجري في الفلّيل من هذا ، على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على سجيتهما ، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ، ولاتستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت ، وثلموا أديانهم وتورعت » .

وهذا كلام رائع معجب ، ينبغي أن نلقاه بالتقدير والإجلال ، ولا سيما إذ تمثلنا أنه قيل في القرن الثالث ، وأن قائله رجل من رجال الدين يؤلف في التفسير والحديث ، وينصب نفسه للدفاع عنهما ضد نزعات الشك الفلسفي التي نجمت نواحيها في ذلك العصر .

* * *

تأويل مشكل القرآن

وكان كتاب « تأويل مشكل القرآن » ثمرة طيبة من ثمار ذلك الدفاع القويم الذي أبلى فيه ابن قتيبة بلاء حسناً . فقد هاله ما رأى من كثرة الشكوك التي تثار حول القرآن ، والمطاعن التي تسدّد نحوه ؛ وخشى أن تكون عاقبة أمرها خسراً للأغمار والأحداث ؛ فانتدب نفسه لدرئها ، وتبيين عوجها ، وردّ كيدها إلى نحور أعصابها . وقد أعانه على ذلك امتلاكه لتمام

البيان المشرق الرصين ، واقتداره على النقد العلمى المتين ؛ وشمول معارفه وزكاء مداركه ؛ وسعة عقله الذى تمثل أدبين ، وتثقف ثقافتين ؛ هما العربية ، والفارسية .

« يحدّثنا ابن قتيبة - عما بهته إلى تأليف هذا الكتاب ، وما صنعه فيه - فيقول ص ١٧ : » وقد اعترض كتاب الله بالظعن ماجدون ، ولغوا فيه وهجروا ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ؛ بأفهام كليلية ، وأبصار عليّة ، ونظر مدخول ؛ فخرّفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ؛ ثم قَصَّوْا عليه بالتناقض ، والاستحالة فى اللحن ، وفساد النظم ، والاختلاف . وأدّوْا فى ذلك بعلم ربما أمّات الضعيف الغُمر ؛ والحديث الغرّ ؛ واعترضت بالشبه فى التلويح ، وقدحت بالشكوك فى الصدور فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشفت للناس ما يلبسون ، فألفتُ هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن ؛ مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والإيضاح ، وحاملاً ما أعلم فيه مقالاً لإمام مطلع على لغات العرب ؛ لأرى المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأى ، أو أقضى عليه بتأويل ، ولم يجوز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير ؛ إذ كنت لم أقصر على وحى القوم حتى كشفتهم ، وعلى إيمانهم حتى أوضحتهم ، وزدت فى الألفاظ ونقصت ، وقدّمت وأخرت ، وضربت لذلك الأمثال والأشكال حتى يستوى فى فهمه السامعون . »

وقد عرض لما صنع مرة أخرى - بعد أن شرح معنى التشابه والمشكل -
إذ يقول في ص ٧٤ : « وأصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر والمغنيان
مختلفان . . ومنه يقال : اشتبه على الأمر ؛ إذا أشبه غيره فلم تسكد تفرق
بينهما . وشبهت على . إذا لبست الحق بالباطل . ثم يقال لكل ما غمض
ودق : متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره .

ومثل التشابه : المشكل ؛ وسمى مشكلا لأنه أشكل ، أى دخل في شكل
غيره ، فأشبهه وشاكله . ثم يقال لما غمض - وإن لم يكن غموضه من هذه
الجهة - : مشكل . وقد بينت ما غمض من معناه لالتباسه بغيره ، واستتار
المعاني المختلفة تحت لفظه ؛ ونفسير المشكل الذى ادعى على القرآن فساد
النظم فيه . »

وقد ذكر ابن فتيبة في مقدمته : أن فضل القرآن لا يعرفه إلا « من كثير
نظره ، واتسم علمه ؛ وفهم مذاهب العرب ، وافتنانها في الأساليب ؛ وما
خص الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس في جميع الأمم ، أمة أوتيت -
من العارضة والبيان ، واتساع المجال - ما أوتيته العرب .. » ، ثم ذكر
حال العرب في مباني ألفاظها وإعرابها ، وألوان فروقها بين معاني الألفاظ ،
وتحدث عما لها من الشعر « الذى أقامه الله لها مقام الكتاب لغيرها ، وجعله
لعلومها مستودعا ، ولآدابها حافظا ، ولأنسابها مقيدا ، ولأخبارها ديوانا
لا يرث على الدهر ولا يبید على مر الزمان ... » ، ثم قال في ص ١٥ :
« وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها طرق القول وما أخذت ففهيها :

الاستعارة والتثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والإخفاء والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والسكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، ولفظ العموم لمعنى الخصوص .

وبكل هذه المذاهب نزل القرآن . ولذلك لا يقدر أحد من التراجم ، على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تنسج في الحجاز اتساع العرب . ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ، لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذى أودعته ، حتى تبسط مجموعها ، وتصل مقطوعها ، وتظهر مستورها ، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هُدانة وعهد — خفت منهم خيانة ونقضاً — فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم ، وآذَنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي السَّكَنِ عِدْدًا ﴾ ، إن أردت أن تنقله بلفظها لم يفهمه المنقول إليه ، فإن قلت أَمَنَّاهم سنين عدداً ، لكنت مترجماً للمعنى دون اللفظ . وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ، إن ترجمته بمثل لفظه استغلق . وإن قلت : لم يتغافلوا ، أدبت المعنى بلفظ آخر .

وأعتقد أن كلام ابن قتيبة في مسألة ترجمة القرآن هو القول الفصل الذي يجب التمسك به ؛ وعدم العدول عنه .

* * *

بدأ ابن قتيبة كتابه بالحكاية عن الطاعنين ؛ فسررد مطاعنهم علي اختلاف أنواعها ؛ ثم عقد أبواباً للرد عليهم في وجوه القراءات ؛ وما ادعوه علي القرآن من اللحن ؛ وما نخلوه من التناقض والاختلاف بين آيه ، وما قالوه في التشابه . كما أجاب عن قهرهم : ماذا أراد يأنزال المقتشابه في القرآن ، من أراد لعباده الهدى والبيان ! . .

ثم ذكر بعد ذلك أبواب المجاز ؛ لأن أكثر غلط المتأولين كان من جهته ، وبسببه تشعبت الطرق ، واختلقت النحل .

وطريقته في إيراد أبواب المجاز أنه يذكر ما أتى منها في كتاب الله ، يُعقبه بأمثاله : من الشعر ولغات العرب ، وما استعمله الناس في كلامهم .

وقد بدأ بباب الاستعارة ، ثم باب المقلوب ، وباب الحذف والاختصار ، وباب تكرار الكلام والزيادة فيه ، وباب الكناية والتعريض ، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه .

ثم ذكر باب الأبواب في الكتاب ، وهو باب تأويل الحروف التي ادعى علي القرآن بها الاستحالة وفساد النظم ، فتحدث عن الحروف المقطعة ، واختلاف المفسرين فيها . ثم خلاص من الكلام عاينها إلى الكلام علي مشكل سور القرآن ؛

فيذكر ما في السورة منه ثم يؤوله ؛ ولكنه لم يرتب السور على حسب ترتيبها المعروف في المصحف ؛ بل ذكرها حسبما عُنَّ له من مشاكلها . وقد لا يستوفي الكلام على مشاكل السورة التي يذكرها ؛ فيعيد ذكرها مرة أو مرات : مثلاً فعل في سورة البقرة والأنعام ، وسورة النحل والنساء .

فقد تحدث عن مشكل السورتين الأوليين في أربعة مواضع ، وتحدث عن مشكل الثابنتين في ثلاثة — كما أنه لم يعرض لكل سور القرآن . والسورة الوحيدة التي استوفى تأويلها ، وشرحها كلها — من بين السور التي ذكرها — هي سورة الجن ؛ لما فيها من إشكال وغموض ؛ بما وقع فيها من تكرار « إن » واختلاف القراء في نصبها وكسرها ؛ واشتباه ما فيها من قول الله وقول الجن .

وبعد أن فرغ ابن قتيبة من تأويله لمشكل السور التي ذكرها ، عقد باباً عظيماً القدر ، بالغ الأهمية ؛ وهو « باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة » ؛ تحدث فيه عن نيف وأربعين لفظاً من الألفاظ التي جاءت في القرآن متحدة المباني ، مختلفة المعاني ؛ كالكضاء والبلاء ، والأمة والرؤية والإمام والإسلام ، والفتنة والسلطان ، والضلال والنسيان ، والحساب والكتاب .

ثم ذكر ابن قتيبة بعد ذلك « باب تفسير حروف المعاني ، وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرف » ؛ كآين ، وأنى ، ولولا ، ولوما ، ولا جرم ، وتعالى ، وهلم ، ورويداً ، ولدن .

ثم ختم كتابه بباب « دخول بعض حروف الصفات مكان بعض » وما هو جدير بالملاحظة : أن عنوان هذا الباب والذي قبله ، مظهر من مظاهر مزج ابن قتيبة بين كلام الكوفيين والبصريين ، وحروف المعاني تعبير بصري ؛ ذكر المفضل بن سلمة الكوفي في كتاب « البارع » الحروف التي جاءت لمعان — بعد أن ذكر أبنية الكلام — فقال : « والحد الثالث من الكلام الأحداث ؛ وهي التي يسميها أهل البصرة : حروف المعاني » .

وحروف الصفات تعبير كوفي ؛ قال السيوطي في همع الهوامع ١٩/٢ « حروف الجر ، ويسميها الكوفيون حروف الإضافة ؛ لأنها تضيف الفعل إلى الاسم ، أي توصله إليه ، وحروف الصفات لأنها تحدث صفة في الاسم ، فتقولك : جلست في الدار ، دات « في » على أن الدار وعاء للجلوس ، وقيل لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات » .

* * *

ولأبواب المجاز التي ذكرها ابن قتيبة في هذا الكتاب ، قيمة تاريخية كبيرة ؛ لأنها ستضيف إلى معارفنا عن تطور البلاغة شيئاً جديداً . فالشائع الذائع بين الخاصة وغيرهم : أن البلاغة العربية طفرت من نثار الجاحظ المبعوث في كتبه ، إلى « بدیع » ابن المعتز ، طفرة واحدة . ولم يعرف أحد أن ابن قتيبة قد أسهم في تكوينها وتطورها بنصيب موفور . فظهر تلك الأبواب في هذا الكتاب بظهورنا على تلك الحلقة المفقودة في تاريخ البلاغة ، ويضيف إلى أبحاث ابن قتيبة مجداً آخر عظيم الشأن ، سيذكره الذاكرون كلما تحدثوا عن تاريخ البلاغة ونشأتها .

ولن يستطيع باحث أن يغفل صنع ابن قتيبة في استخراج ما في القرآن من أنواع المجاز وتبويبها أبواباً مفصلة بلغت عدة صفحاتها أربعاً وخمسين ومائة؛ قبل أن يؤلف ابن المعتز كتاب « البديع » في سنة أربع وسبعين ومائتين؛ بسنوات وسنوات .

* * *

ولباب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة ، كذلك قيمة تاريخية عظيمة ، فقد رجع ابن قتيبة المعاني المختلفة للفظ الواحد ، إلى أصل واحد نشأت منه ، وتفرعت عنه .

ومن أمثلة ذلك أنه ذكر كلمة « القضاء » ، وبين معانيها المختلفة التي تصير إليها ؛ ثم ختم بحثه بقوله ص ٣٤٣ « وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد » . وكذلك قال بعد تبينه لمعاني « القنوت » ص ٣٥ « ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة ؛ لأن جميع هذه الخلال من الصلاة والقيام فيها ، والدعاء وغير ذلك يكون عنها » ؛ وقال بعد ذكره لمعاني كلمة « الأمر » ص ٣٩٤ « وهذا كله وإن اختلف فأصله واحد » .

وبذلك يكون لابن قتيبة فضل السبق إلى القول برد مفردات المادة اللغوية ، إلى أصولها المعنوية المشتركة ؛ لأنه أسبق من ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ ، ومن أستاذه أبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ ، ومن ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ . بل إنني أذهب إلى أن فكرة ابن قتيبة هذه ، هي التي أوحت إلى ابن فارس تأليف كتابه « مقاييس اللغة » ؛ كما أوحت إليه تلك

المباحث اللغوية — التى تضمنها تأويل مشكل القرآن — تأليف كتاب « الصاحبى » فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : والذى يقارن بين الكتابين ، يجد أن ابن فارس قد اعتمد على تأويل مشكل القرآن كل الاعتماد ، واستفيع بمباحثه انتفاعاً عظيماً . ونقل منها إلى كتابه نقولا كثيرة : من غير أن يشير إلى ذلك ؛ وإن أشار — وقليلاً ما يصنع — فإنما يشير إشارة مبهمه غامضة ؛ كقوله فى ص ١٢ : « وقال بعض علمائنا » ؛ وقوله فى ص ١٢٤ : « وقال بعضهم » . وقد أشرت إلى بعض ما نقله فى مواضعه من الكتاب .

وابن فارس حريص على أن لا يذكر اسم ابن قتيبة ، إلا إذا حاول نقده . وهو فى نقده له مفروض متحامل متمعجل ؛ وقد دفعته المجلة إلى الخطأ ، وعدم التمييز بين كلام ابن قتيبة ، وبين قوله عن الفراء فى « لا جرم » ؛ فنسب قول الفراء إلى ابن قتيبة وخطأه فيه كما أشرت إلى ذلك فى تعليق على صفحة ٤١٨ .

* * *

وقد عهد أبو عبد الله : محمد بن أحمد بن مطرّف الدكنانى القرطبى (٣٨٧ — ٣٥٤) ، إلى كتابى : تأويل مشكل القرآن ، وتفسير غريب القرآن فجمع بينهما — كما يقول — فى كتاب أسماه « القرطين » وهذا العمل ليس — من العلم ، ولا من التأليف — فى شيء ؛ ولا يدل إلا على سوء

التفكير والتدبير. بل هو مسخ للكتابين، وتقطيع لأوصالهما ، وبثرة لمضمونهما
بثرة تُضِلُّ الأفهام والأفكار ، ولا تسيغها الأذواق ولا العقول .

ولقد زعم ابن مطرف في مقدمته أنه لم يحل الكلام في كلا الكتابين
عن جهة، ولا غير من لفظه ، ولا زاد فيه ، ولا نقص منه . ولكن فعله خالف
قوله ؛ فقد نقص منهما كثيراً وزاد فيهما قليلاً ؛ واتبع فيما حذف هوأه الذى
أضله عن سنن العلماء ، وليس أدل على ذلك من أنه حذف من تأويل مشكل
القرآن صفحة ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥ ؛ وعلل حذفه لهذه الصفحات ، بقوله ١٥/٢ :
« وباقي الباب لم أكتبه ؛ لما فيه من الطعن على حمزة ؛ وكان أروع أهل
زمانه ، مع خلو باقي الباب من الفائدة ! » وسيعلم كل قارئ لهذه الصفحات
ما تضمنته من الفوائد العلمية والتاريخية الجليلة ، وسيحكم بأن ابن مطرف كان
ينطق عن الهوى فى حكمه .

* * *

وقد اعتمدت فى نشر هذا الكتاب على ثلاث نسخ ، الأولى : نسخة
دار الكتب المصرية (١٨٥٠ تفسير) وهى بخط أبى طالب بن عبد الواحد بن
عبد الحسن بن أبى الوفاء الأنصارى الدمشقى ، المعروف ببرهان الدين ، وقد
كتبها فى سنة ٥٤٨ هـ ، وقد قرئت على أبى منصور الجوالقى وعدد أوراقها
١٣٤ ورقة ، وتنقص من أولها ورقة ، ومقاسها ١٥ × ١١ سم وتشتمل الصفحة
منها على خمسة عشر سطراً ، وعلى هوامشها بعض تعليقات ، وهى مضمونة
بالحركات ورمزها « ج » .

والنسخة الثانية : نسخة مكتبة مراد ملاً ، كتبت سنة ٥٣٢ هـ وهى فى ١١٧ ورقة ، ومقاسها ١٩ × ٢٥ سم وعدد سطور صفحتها ٢٠ سطراً .

والنسخة الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية (٦٦٣ تفسير) وهى مكتوبة فى سنة ٣٧٩ هـ بخط محمد بن أحمد بن يحيى ، وعدد أوراقها ٨٥ ورقة ومقاسها ٢١ × ١٥ سم وعدد سطور الصفحة ٢٦ سطراً . ولئن كانت هذه النسخة أقدم النسخ عهداً ، فإنها أقلهن وزناً ؛ لأن كاتبها كان يحتوى الشعر فكان إذا مر بشعر حذفه ، ولم يفلت منه إلا قليل : وهى كذلك تنقص كثيراً من النصوص . ولكثرة المحذوف منها ، واستحالة الإشارة إلى أوله وآخره فى هوامش الصفحات دون التطويل الممل — رأيت إثبات الفروق بين النسخ فى آخر الكتاب . ولعل ذلك مما يريح جمهرة القراء .

* * *

ولقد حرصت فى شرحى لهذا الكتاب على تخرج أبياته ، وربط موضوعاته بأما كتبها من كتب الأدب والتفسير ، ونقلات — من الآراء — مادعت إليه ضرورة البحث ، وأومأت إلى ما لم أنقل . وكان قصدى فى ذلك إما تعضيد رأى ، أو توهين قول ، أو تفصيل مجمل ، أو توضيح مبهم ، أو الإشارة إلى مصدر فكرة ، أو اتفاق خاطر . لئلا يكون الدارس للكتاب على بينة مما ذكره ابن قتيبة من مشكل القرآن ، محيطاً بفقهاء المسائل التى عرض لها ، جامعاً لأطراف الآراء ووجوه المذاهب فيها .

وما أريد أن أعرض لما صنعت بتزكية أو توثيق ، تأدباً بأدب السلف الصالح ، وناسياً بقول أبي سليمان الخطّابي في ختام مقدمته لتفسير غريب الحديث : « فأمّا سائر ما تكلمنا عليه فإنّا أحقاء بأن لا نزكية ، وأن لا نؤكد الثقة به ؛ وكل من عثر منه على حرف أو معنى يجب تغييره ، فنحن نناشده الله في إصلاحه ، وأداء حق النصيحة فيه . فإن الإنسان ضعيف لا يسلم من الخطأ ، إلا أن يعصمه الله بتوقيفه ، ونحن نسأل الله ذلك ، ونرغب إليه في دركه إنه جواد وهوب » .

واقتداء بقول ابن قتيبة : « وما أبرأ إليك بعد من العثرة والزلة ، وما استغنى منك - إن وقفت على شيء - : عن التنبيه والدلالة ، ولا أستنكف من الرجوع إلى الصواب عن الغلط . فإن هذا الفن لطيف خفي ، وابن آدم إلى العجز والضعف والمجالة ، (وفوق كل ذي علم عليم) .

ونحن نسأل الله أن ينفعنا وإياك بالعلم ، ويعرفنا قدره ، ويجعل شغلنا بالعمل المقرب منه ، ويؤتينا بفضلَه أفضل ما آتاه من أمله بخير نية ، وأرشد هُدىً إنه الواسع الكريم » .

القاهرة في يوم الإثنين : ١٧ من رمضان ١٣٩٣ هـ
١٣ أكتوبر ١٩٧٣ م
السيد أحمد صقر

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ بِكَ عَنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْعَلِيمُ
وَنَقُولُ اخذنا هذا عنك ومنك ٥ وعبدك من يملك
مكتبة معارف يقول لقيت من كان راي عنه وجهه في فلان من فلان
او عنه ٥

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اللَّهُمَّ عَلِيٌّ ذِي نَبْتٍ ٥

الامام علي بن ابي طالب

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا خَلَقْنَا مِنْهُ إِلَّا خَلْقًا رَاقٍ ٥

الحمد لله الذي خلقنا

والحمد لله اولوا اخرا وصل الله على محمد النبي الذي سجدوا له
واله وسلم كثيرا وحسبنا الله حيوتنا وبعد وفاقتنا
ونعم الوكيل والمعين ربنا ونعم المولى ونعم النصير ٥

وكتب محمد بن احمد بن يحيى رحمه الله سنة ثمان مائة
من سنة تسع وسبعين وثلاث مائة رحمه الله سبحانه ومن نظر
فيه من المسلمين امين رب العالمين ويقول سوف يلقى
ويبقى الكتاب

ارثا دنا يدل علما فانا نظروا بعدنا الى الامتار

الله ربنا نعمنا بما علمنا وعلمنا ما سئعنا به وزدنا علما
ينفعنا ٥ الحمد لله الذي جمع في امده الله ما علمنا منها
وما لم تعلم على جميع نعم الله ما علمنا منها وما لم تعلم
لدي جميع خلق الله ما علمنا منهم وما لم تعلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله الذي رزقنا هذا الدنيا شياطينا من النار شياطينا من النار
 له عجايب كثيرة فبما رزقنا من هذه الدنيا من شياطينا من النار
 خلقه من نور وسرفه وكبره ورزقنا من هذه الدنيا من شياطينا من النار
 روحنا ورحمة وشفاء وهنك ونورا وقطع منه نعيم التائب
 أطلعنا على عجايب وأبانه نخب التطهير عن جبال التكليف وعجابه
 شتلا لا ينال على طول التلاوة وشهواتها لا ينال على طول وعجابه
 لا تخاف من كثرة الرد وعجابه لا تنفسي عجابه ومفيدا لا تنقطع
 قوايه وتنتج به شفاء الكلب وشعلا الكبر من عجايبه في القليل من
 لفظه وذلك من عجايبه من الله على عباده من عجايبه في الكلام
 شيت أن يعرف ذلك فقد شرفوا من عجايبه في القول من عجايبه
 فأعرض عن الكلام كيف جملة هذا الكلام كل خلق عجب
 لأننا خلقنا من عجايبه القاطعين والفتوح عن الظالمين وأعطوا المؤمنين
 وفي الأسرار تعرفوا لله وحده الأحكام وحسن اللسان عن
 الكذب وعجبت الظرف عن الخيرات وأما نبي هذا وما شئت
 عرفوا وعرفوا لأن كل نبي عرفه وكل قلب تطهر إليه وفي العراض
 عن الكاهل من العجايب والجميل وتنويه النفس عن فناء الشقة فتنان
 الخوج وقول الله عز وجل إذا زلزلنا الأرض فزلا فخرج منها ما لم تكن
 كيف كل شيت من عجايبه من الأرض فزلا فخرج منها ما لم تكن

ألفاظه

ويبدأ القوم فذموا لها على من أوصى بها في الشرع فقد صوّ الأجير
هذه فافاد عثر أن ثابته والخبأ أن الظبحة في الجوهرة فالأ
أن يسعها بل لا تترك على نحوها
في كتاب مسئلة الغزاة في تفسير المشرك لا في المشرك في المشرك
سليخ حجازي لا على غير سبيلها في تفسيره وتفسيره في كتابه ومما يلاحظه في المصنف

٥٥٢٢



